اقرأ

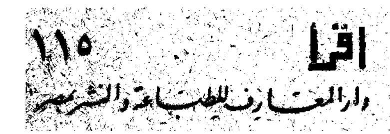
أنور الجندى

الإمام المراغى

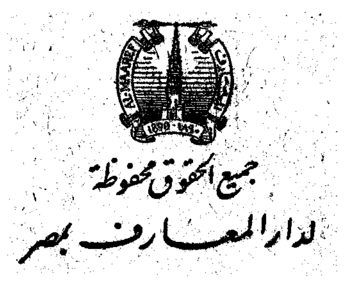
دار المعارف بمصر

أنور الجندي

الإمام المراغي



اقرأ ١١٠ — أغسطس سنة ١٩٥٢



تصدير

يقول أبو بكر محمد بن الحسين « إن من أخلاق العلماء أن يأمن شره من خالطه ، ويأمن خيره من صاحبه ، لا يؤاخذ بالعثرات ، ولا يشيع الذنوب عن غيره ، ولا يقطع بالبلاغات ، ولا يفشي سر من عاداه ، ولا ينتصر منه بغير حق ، ويعفو ويصفح عنه .. ذليل للحق ، عزيز على الباطل ، كاظم الغيظ عمن آذاه ، شديد البغض لمن عصى الله ، يجيب السفيه بالصمت عنه ، والعالم بالقبول منه ، لا مداهن ولا مشاحن ولا مختال ولا حسود .. ولا حقود ولا سفيه ولا جاف ولا فظ ولا غليظ ولا طعان ولا لعان ولا مغتاب ولا سباب .. يخالط من الإخوان من عاونه على طاعة ربه ونهاه عما يكره مولاه ، ويخالق بالجميل من يأمن شره إبقاء على دينه ، سليم القلب للعباد من الغل والحسد ، يغلب على قلبه حسن الظن بالمؤمنين في كل ما أمكن فيه العذر ، ولا يحب زوال النعم عن أحد من العباد ، يداري جهل من عامله برفقه ، إذا تعجب من جهل غيره ، ذكر

جهله أكثر فيما بينه وبين ربه عز وجل ، لا يتوقع له بائقة ، ولا يخاف منه غائلة . . الناس منه فى راحة ، ونفسه منه فى جهد »

. . . هذه أخلاق العلماء كما يصورها الإمام أبو بكر ابن الحسين . . وهى صورة الخلق الذى كان يرضاه الإمام المراغى ، وفى هذه العبارات لمحة من شمائل هذا الرجل الذى نقدمه للشباب الجديد صورة صادقة للأئمة المصلحين ، والعلماء العاملين ، والمجتهدين المجددين . .

يقدم هذه الصورة السريعة كاتب من غير بيئة الأزهريين ، تأكيداً لأثر الرجل فى ميادين الثقافة والفكر والأدب بالإضافة إلى فضله فى ميدان الأزهر والدين .

إنه من الجائز أن يكتب عن الإمام المراغى ، أتباعه وتلاميذه ومريدوه ، والذين اتصلوا به فى بيئته الأصلية وعاشروه ، أما إذا تصدى لذلك كاتب من غير هذه البيئة فذلك دليل على مكانة الرجل الذاتية التى فرضت نفسها على المفكرين والباحثين .

لقد أوليت فن « التاريخ » عنايتى منذ سنوات ، وشغفت بدراسة الأبطال والعظماء وتراجم أفذاذ الرجال ، وأوغلت فى البحث وراء منابع العبقرية فى طائفة كبرى من زعماء الإصلاح والوطنية والحرب فى العصر الجديد والقديم وفى

الشرق والغرب فكان ممن استهوانى فى التاريخ المعاصر القريب رجال من بينهم هذا الإمام العظيم .

وحق للمراغى أن يكتب عنه من تعلم فى غير بيئة الأزهر ، فقد امتد أثر الرجل وفضله إلى أكثر من ميدان ، وكان له أثره الواضح فى محيط الثقافة وتطور الفكر الحديث .

وكان الإمام رضى الله عنه بعيد الأثر فى كل عمل أدبى جديد ، فطوق أعناق كل من أخذ من الثقافة العربية الجديدة بسبب .

وإننا لا نمن على ذكرى الإمام الجليل بهذا العمل بل نعتبره أقل ما يجب فى حق رجل هز المشرقين ونقل الأزهر من وضع إلى وضع .

ونحن لا ندعى أننا بهذا السفر الصغير المتواضع نقدم « تاريخاً » للإمام المراغى ، أو نضع سيرته موضع البحث العلمى الذى هى جديرة به ، فذاك عمل ضخم لا نزعم أننا نستطيع القيام به الآن ، وهو جدير بأن تعبأ له جهود عدد كبير من الكتاب والعلماء والباحثين ، وأن يكتب فى أناة وأن تضم إليه الكثير من الوثائق والرسائل والأبحاث التى كتبها عميد الأزهر خلال حياته الطويلة الحافلة ، والتى تضمنها مكتبته العامرة فى حلوان . .

وكل ما نستطيع أن نقدمه الآن هو هذه الخطوط الرئيسية لتلك « الشخصية » الضخمة ، نؤدى بذلك واجباً محتوماً ، يعد كل تأخير فى أدائه تقصير فى حق الرجل العملاق الذى وهب حياته مصر والإسلام والأزهر ، وعاش لها جميعاً كل لحظة فى حياته . .

والحق أننى كلما أوغلت فى دراسة هذه الشخصية الممتازة الخالدة ، ازددت لها إكباراً وبها إعجاباً . . ، فالإمام المراغى ، رجل معاصر ، قريب العهد بنا وبحياتنا السياسية والاجتماعية ، وقد كنا نراه ونسمع منه . . ، وكنا نكبره ونجله من بعيد ، غير أننا عندما تحقق لنا العزم فى الكتابة عنه ، وأخذنا نتصل بعارفيه وأبنائه ، والذين عملوا معه ، وأخذنا نقلب صفحات الأحداث ، كانت كل كلمة صغيرة ، أو قصاصة ضئيلة ، تعطينا الدليل الجديد على عظمة الرجل ، وجلاله وخطره وأثرة البعيد المدى .

وإذا كنا لا نستطيع الآن أن نقول كل شىء عن عميد الأزهر والإسلام ، فإننا نعتقد أن الظروف المواتية ستحقق لنا الرغبة فى أن نضع بين يدى الناس كل « حقائق » التاريخ بالنسبة لرجل أمضى حياته مجاهداً . . . ، وقضى وهو فى ساحة الوغى . .

لقد مرت على مصر فترة من الوقت ، كانت خلالها موضع الاتهام فى أنها لا تنجب العباقرة ولا الأبطال وقد مضت هذه الموجه تصور كل أقطاب الفكر والزعامة والسياسة فى مصر بصورة الغرباء

هى موجة عاصفة تنكر فيها الناس لطبيعة مصر ، ووصفوها بالعقم ، غير أن الشخصيات المصرية الصميمة التى هزت التاريخ المعاصر هزاً ، قضت على هذه الفرية ودحضتها فلم يستطع القائلون بها ترديدها من بعد .

.. وفى مقدمة الشخصيات التى أثبتت سلامة الطبيعة المصرية وخصوبتها وقدرتها على إنتاج العبقريات ، الإمام المراغى .

القاهرة فى ٧ ربيع الأول ١٣٧١ أنور الجندى

٢١ ديسمبر ١٩٥١

النبوغ الباكر

تاريخ الإمام المراغى كله ، يدل على النبوع والتفوق والسبق . . .

وقد بدا ذلك الطابع جلياً منذ أيام الدروس الأولى فى الأزهر ، فقد عرف عنه أنه كان لا يحضر إلا الدروس الرئيسية وحدها ، ثم ينصرف إلى الدراسة الخاصة التى كان يرتبها وفق حاجاته العلمية . .

وقد أتاح له هذا الاتجاه أن يدرس عدة سنوات دراسية فى سنة زمنية واحدة ، فكان أصغر من حمل العالمية من أبناء العلماء ، إذ حصل عليها وسنه[1] ثلاثة وعشرون عاماً .

وظل طوال حياته على هذا النهج ، أصغر من ولى منصباً من المناصب التى وليها من ناحية السن .

كان أصغر من ولى منصب القضاء ، وقاضى القضاة ، وعضو المحكمة الشرعية ورئيس المحكمة العليا .. ، وأصغر

---

(١) ولد الإمام ١٨٨١ وحصل على العالمية ١٩٠٤ .

من أحرز عضوية هيئة كبار العلماء وأصغر شيوخ الأزهر سنًّا . . .

كان أصغر أنداده وزملائه سنًّا ، ولكنه كان من أكثرهم ذكاء واتزاناً ، وكان فى مستهل شبابه يبدى من الرأى ما يثير إعجاب زملائه وهم أوفى منه سنًّا وخبرة ، وأقدم منه عهداً بملابسة حياة الأزهر .

يقول الأستاذ أبو الوفا المراغى « إنه كان يعتمد على نفسه فى تحصيل الدرس وتفهم المسائل فكان يبدأ الكتاب على أحد أشياخه ثم يتمة مذاكرة مع أحد زملائه » .

وقد برز هذا النبوغ بعد ذلك فى كل أدوار حياته ومختلف الأعمال التى وكلت إليه ، ومضت حياته على صورة منوعة من الكفاح الدائم ، والنشاط الدائب . . فلم يقف ، ولم يتمهل ، ولم يتوقف عن جهاد فى سبيل الوطن والعقيدة والأزهر ولم يدع فرصة من الفرص ، يمكن أن يعلن فيها اسم مصر أو الإسلام عالياً إلا انتهزها وأخذمنها بأوفى نصيب.

واختلف مع الإنجليز بشأن راتب القاضى ، واختلف معهم بشأن قرار تعيينه ، واختلف معهم بموقفه من الثورة المصرية سنة ١٩١٩ واختلف معهم حين مرور جورج الخامس ، وكان مصدر خلافه إيمانه ووطنيته ، ولم يجاملهم

إلا فى حدود ما يأمر به الدين من معاملة الناس . . .

وما أن عاد إلى مصر حتى بدأ العمل ، فأصلح فى الأوقاف ، وأصلح فى المحاكم الشرعية وجدد خطب المنابر ، وأساليب الوعظ .

فهو الذى وقف فى وجه عاصفة التبشير التى اجتاحت مصر والشرق .

وهو الذى أدخل العلوم الحديثة واللغات الأوربية إلى الأزهر .

وهو الذى فتح باب الاجتهاد على مصراعيه .

وهو الذى دعا إلى ترجمة القرآن .

وهو الذى ألغى الطلاق ثلاث مرات فى مرة واحدة .

* * *

وكان نبوغه مدداً لحصافته ولباقته ، فأفاد من أخطاء من سبقوه، وتجنب ما وقعوا فيه ، ولم تؤخذ عليه حدتهم . . ، التى قال عنها الشيخ رشيد « لطالما هدمت الحدة ما بنت الفطنة » ، فكان خبيراً بأخلاق الناس ، فاستطاع أن يصل إلى ما يريد دون أن يجرح أو يعادى أو يخاصم وكان أسهل شىء عنده أن يتنحى إذا قامت العقبات فى طريقه .

وقد أتاح له نبوغه حصيلة ضخمة من العلم والثقافة ،

امتزجت بها حصافة ومرونة كانت سنادة فى مواجهة العواصف والأحداث .

ولد الإمام محمد مصطفى المراغى فى « المراغة » من أعمال مركز طهطا فى ٥ مارس سنة ١٨٨١ وقضى إلى رحمة ربه فى ٢١ أغسطس ١٩٤٥ .

ولد فى الريف ونشأ فى الصعيد ، وطالع فجر الحياة فى بيئة العلم ومحيط الدين فقد كان والده طيب الله ثراه ، عالماً جليلا ، فتفتحت عيناه على تلك الحياة النقية الصافية التى كان الناس يحيونها فى ختام القرن الماضى فى أعماق الصعيد .

والحياة فى الريف ، وفى صعيد مصر ، تمد النفس الإنسانية بالحيوية الدافقة ، وتمد الطبع السوى بالإيمان والوفاء والشجاعة والنبل ، هذا إلى اعتزاز بالشخصية مطبوع وتقدير للكرامة موروث .. ضحى فى سبيلهما الشيخ بكل شىء .

.. وكذلك كان الإمام المراغى صورة صادقة لبيئته . وإن أتيح له من بعد أن يستجيب للحياة الجديدة فى مرونة وسعة أفق ، إلا أنه ظل محتفظاً بأجل ما يرسب فى الطبع من عوامل البيئة الصعيدية الخالصة وهو كرم اليد وسماحة النفس والاعتزاز بالكرامة .

نشأ المراغى هادئ الطبع ، رقيق الإحساس ، كبير الأناة ، وظل كذلك . . طوال حياته ، وكان إلى بساطته وتواضعه عزيز النفس مرفوع الهامة حتى لتستطيع أن ترجع كل تصرفاته إلى هذه الطبيعة فى مجموعها .

ولا شك أن تلك الطبيعة « المراغية » التى ولدت معه ، فى بيئته الريفية الأولى قد وضعت التصميم الأول للشخصية الفذة . .

فإذا ما جاءت بعد ذلك المجاورة لطلب العلم ، والاتصال بالشيخ محمد عبده ثم السفر إلى السودان . . ، وتولى القضاء ، ثم العودة إلى مصر ، فإنما جاء هذا كله وجاءت تجاربه وخبرته لتقيم بناء هذه الشخصية النموذجية وتصغها فى القالب النموذجى .

قاضي القضاة

أمضى « المراغي » فترة تبلغ ثلاثة عشر عاماً في السودان ، ما بين عام ١٩٠٤ و ١٩١٩ وقد أمضى من هذه المرحلة ، فترة في القاهرة .. ، ثم عاد مرة ثانية عندما اختير قاضياً للقضاة ..

اختير الإمام سنة ١٩٠٤ قاضياً لمديرية دنقلة ، فأمضى بها عاماً ، نقل بعدها قاضياً لمديرية الخرطوم فمكث بها عامين ثم اختلف مع السكرتير القضائي على مرتب « القاضي » ثم عاد إلى القاهرة . .وآثر البقاء بها .

وعين في تلك الفترة مفتشاً دينياً بوزارة الأوقاف ، وتزوج في سنة ١٩٠٨ وفي سنة ١٩٠٩ رزق بالمرتضى . .

حدثني الأستاذ عبد الحميد رشوان قال « كان مرتب القاضي عند ما عين الإمام بالسودان ١٤ جنيهاً ، غير أنه منح زيادة قدرها ٦ جنيهات . . فلم يقبلها ، واحتج لدى السكرتير القضائي المستر بونهام كارتر . .

فقال السكرتير انى أعجب من قاض شرعى يرفض ستة جنيهات علاوة فى الشهر فاستاء الشيخ ، وقال له : إن عجبى مثل عجبك من أن القاضى الإنجليزى يتناول ٥٠ جنيهاً بينما تستكثر على القاضى الشرعى المصرى ٢٠ جنيهاً وطلب الشيخ أجازة ثلاثة أشهر . . وعاد إلى مصر ، غير أن السكرتير ألح عليه فى أن يعود ، ورفض الشيخ .

« . . وأمضى الشيخ فترة فى العمل بمصر ، ثم خلت وظيفة قاضى قضاة السودان وكان الإنجليز قد اختاروا الشيخ المراغى ، وطلبوا إلى الحكومة المصرية تعيينه قاضياً لقضاة السودان . . ، وكان وزير الأوقاف إذ ذاك حسين رشدى باشا الذى تولى مفاوضة الشيخ غير أن « الإمام المراغى » اشترط لقبول المنصب ، شرطاً جديداً ، لم يكن معروفاً أو سارياً إذ ذاك وهو أن يعين بمقتضى أمر من الخديوى ، لا بعقد مع الإنجليز كما كانت العادة . . وقد أجيب إلى ما طلب[1] » .

---

(١) مما يروى أن كتشنر وكان المندوب البريطانى قال للشيخ : كيف تشترط هذا ونحن نرفع مرتبك إلى أكثر من سبعة أضعاف مرتبك الحالى . . قال فضيلته : لن أقبل التعيين إلا بمرسوم مصرى . . ومما يذكر أن القاضى الذى خلفه فى منصبه عين بأمر الحاكم العام الإنجليزى . .

ومضى الأستاذ عبد الحميد يستعيد ذكريات أربعين عاماً ويقول : وكان أصغر من ولى منصب « قاضى القضاة » سناً ، كان سنه ٢٨ عاماً . . . ، وقد أمضى هذه المرة فى السودان وفى منصبه هذا أحد عشر عاماً ، من ١٩٠٨ — ١٩١٩ . ، وحفلت هذه الفترة بالكثير من الأعمال الضخمة التى أحدثها الشيخ . .

. . وليست وظيفة قاضى القضاة فى السودان ، وظيفة قضائية فحسب ، بل هى بمنصب وزير العدل أشبه ، فقد كان قاضى القضاة يعين القضاة والكتبة وموظفى المحاكم ، ويحاسبهم على أعمالهم ، ويفصل من يقصر منهم . .

. . وقد شرع الشيخ سنة جديدة فى العمل كانت بعيدة الأثر فى تنظيمه ، هى التفتيش على المحاكم ، فقد كان قضاة السودان — إذ ذاك — على قدر يسير من العلم فمضى الإمام يرشدهم ويوجههم بوسائل غاية فى البراعة .

طالب كل محكمة أن ترسل كشفاً شهرياً . . بملخص كل قضية ، وببيان حكم المحكمة فيها ، فكان يراجع هذه الكشوف بنفسه ويثبت فى خانة خاصة رأيه فى الحكم ، ويبين ما فيه من وجه الخطأ أن وجد ، ويطلب إلى القاضى أحياناً بعض التفاصيل ، ويوجهه فيما يعمل لو عرض عليه مثل هذا

الأمر بصورة أخرى فى قضية أخرى . . فإذا رأى الشيخ أن الخطأ فى الحكم كان كبيراً وأنه مدعاة إلى ظلم المحكوم عليه ، الغاه وطلب إعادة النظر فيه .

ونجحت هذه الطريقة فى ترقية أذهان قضاة السودان ، وتوجيههم . . وفى نفس الوقت كان الشيخ يشرف على القسم الشرعى من كلية غردون ، وبذلك أمكن تخريج طائفة جديدة من القضاة الذين حصلوا على قدر لا بأس به من العلم ، بعد أن ذود فضيلته الكلية بعلماء مصريين من دار العلوم وغيرها ومن لطيف ما حدث أن أحد القضاة كتب على ملاحظة لم ير لها جواباً . . « وقف حمار الشيخ فى العقبة » .

* * *

ومما حدثنى به الأستاذ عبد الحميد أيضاً مسألة الوقف فى السودان ، وهى قصة جديرة بالتسجيل ، ولها مكانها فى تاريخ الإمام المراغى . . ، فقد كان الرجل دائب العمل ، فى سبيل الدين والناس . . لا يدع وسيلة شريفة إلا انتهجها ، للوصول إلى الحق . .

قال : كان فى مدينة الخرطوم مسجد واحد ، قامت بإنشائه وزارة الأوقاف المصرية ، ولم يكن — عند عودة الشيخ إلى الخرطوم قد تم . . وقد اهتم الأستاذ المراغى

بالمسجد . . وبحث أمره طويلا ، فعلم أن لهذا المسجد أوقافاً سابقة ، غير أن إعادة تخطيط المدينة بعد حوادث المهدية وتنظيمها على الوضع القائم وهو ما قام به اللورد كتشنر بالاشتراك مع اليوزباشى المصرى محمد السعيد سماحة . ضيع معالم وقف المسجد . .

وكان كتشنر قد أعلن ، أنه على استعداد لأن يرد لمن فقد منه منزله أو أرضه ، مساحة مماثلة فى أى مكان . .

وطلب الشيخ إلى المهندس الضابط : السعيد سماحة ــ وكان أهل دين واستقامة أن يبحث فى السجلات القديمة عما لهذا المسجد من أوقاف ، فقام الرجل بمهمته على أكمل وجه . وقدم للشيخ كشفاً يشتمل على ما للمسجد من أوقاف فى مدينة الخرطوم ، مبيناً مواقعها . .

وأخذ الشيخ الكشف وذهب به إلى السير ونجت الحاكم العام للسودان .

وحدثه فى الأمر ، وكان مما قال له إن الإنجليز قد خالفوا هذه المرة تقاليدهم فى احترام الشعائر الدينية والمحافظة على بيوت الله ، فقد وضعوا أيديهم على أوقاف مسجد الخرطوم بدون بدل ولا ثمن .

وهنا بهت الحاكم العام وأنكر التهمة . . وقال إن كان

قد حدث شيء من هذا فإنى على استعداد لإصلاحه . .
فقدم له الشيخ الكشف .. فوعد بالبحث ثم عاوده الشيخ فقال له إن هذه الأملاك قد بنيت ، وأنه على استعداد لإعطاء قطع خالية بالخرطوم بدلا منها فرضى الشيخ بذلك ، عدا قطعة واحدة على النيل مساحتها خمسة أفدنة ، أقيم عليها منزل ضخم لمدير الخرطوم الإنجليزى فقد رفض الشيخ أن يستبدلها . . وصمم على أن يضع يده عليها ، فقال له الحاكم العام . . تريد أن نطرد المدير ؟ .قال لا . . ولكنى أؤجر المنزل له . . فقبل الحاكم أن تضم للوقف وتؤجر للحكومة بإيجار سنوى بلغ ٢٥٠ جنيها ، وكتب قاضى القضاة والحاكم العام عقداً تنازلت فيه الحكومة عن الأرض للوقف ، وعين الشيخ ناظراً عليه . . وسجل كتاب الوقف بمحكمة عموم السودان الشرعية وهو موجود بسجلاتها إلى الآن وهو أول وقف فى السودان ، ثم رغب الشيخ فى استثمار الأرض الخالية ، على أساس أن أن يقترض من البنك الأهلى بالخرطوم ٤ آلاف جنيه فقبل البنك ورهن له الشيخ فى مقابل هذا إيجار منزل المدير بدون فائدة واستولى على المبلغ وبنى به بيوتاً فى الخرطوم ما تزال عامرة . . وأنفق إيرادها فى إصلاح المسجد . . وقد زادت هذه الأوقاف بما تجمد

من إيجار المساكن وكان ذلك بفضل الشيخ المراغى »

* * *

ثم لم يلبث الشيخ المراغى ، أن سمع وسمع المصريون فى السودان بأنباء الثورة فى مصر سنة ١٩١٩ وكان صدمهم كبيراً فقد كان الجيش المصرى ما يزال هناك . فماذا كان موقف الرجل الوطنى . .

حدثنى الأستاذ رشوان قال :

فى يوم من أيام شهر يونيو ١٩١٩ طلبنى الأستاذ الإمام وكنت سكرتيراً لمحكمة عموم السودان بالخرطوم وهو قاضى القضاة بها ، وأعطانى نداء مكتوباً بقلم من نار عنوانه « اكتتاب لمكنوبى الثورة الوطنية بمصر » . . ولما قرأته طلبت إليه تغيير كلمة « الثورة » حتى لا تثير ظنون الإنجليز فغضب . . وقال : لا نكذب التاريخ فإنها ثورة قامت من النيل إلى الإسكندرية . .

وقد تضمن النداء المآسى التى وقعت فى مصر والفواجع التى لحقت بأهل القرى ، وما أسالوه من الدماء ظلماً : « ولما كان من الطبيعى أن نتأثر ونتألم لأبنائنا المنكوبين فتخفيفاً لألم المنكوبين ، فإنه على كل مصرى ومصرية أن يساهم فى دفع ما تجود به نفسه ، لإرساله إليهم » وقال

فى ختام النداء « لا تستقلوا القليل فإن الغرض هو بث الشعور فى النفوس » ووقع على النداء باسمه الكامل . . وطلب إرسال المبالغ باسمى وبمقتضى إيصال .

أعطانى الإمام هذا النداء وقال إنه يجب أن يكون سراً لا يعلم به أحد إلا بعد أن يصل إلى من وجه إليهم ، وعليك أن ترسل صورة إلى كل مأمور مصرى فى أنحاء السودان ، ولكل قومندان أورطة مصرية حسب الظروف ، إما بالبريد إن كان مستطاعاً أو عن طريق اليد .

وقد امتثلت للأمر ، واستعنت ببعض الإخوان المصريين على كتابه ألف صوره من هذا النداء وقعها الأستاذ جميعها بخط يده ، وباشرت توزيعها واستعملت فى سبيل توصيلها وسائل كثيرة . . ، ولم يلبث النداء أن وصل إلى الأيدى المصرية ، وكانت النفوس ثائرة لما حل بمصر ، فسارعوا جميعاً إلى الاكتتاب بقلوب راضية ، وكانت الاكتتابات تصلنى وأرسل الإيصالات الخاصة بها فوراً .

وسارع إخواننا السودانيون إلى مشاركة المصريين فى الاكتتاب بحماسة ظاهرة تنبه لها الإنجليز فى مختلف جهات السودان ، وأرسل المديرون الإنجليز إلى الحاكم العام تلغرافات احتجاج ، متضمنة أن الشيخ المراغى قد أعلن الثورة فى

السودان وطلبوا وقف الاكتتاب ، وكان الحاكم العام بمصيفه في (سنكات) فأرسل إلى المستر (دن) رئيس القضاء المدنى ونائبه فى الخرطوم ، أن يتفق مع الأستاذ على وقف الاكتتاب الخطير الذى أشعل نار الحماسة فى جوانب السودان .

وسرعان ما اجتمع المستر دن بالأستاذ ورجاه وقف الاكتتاب فرفض الشيخ وقال إننى حددت ميعاداً لذلك هو آخر يوليو ١٩١٩ ولن أرجع عن ذلك . .

فقال المستر دن : إنك تعلن الثورة والمديرون بالجهات غير قادرين على معالجة المسألة بالنسبة للسودانيين . .

فقال الشيخ إننى طلبت الاكتتاب من كل مصرى ومصرية فقط ، ولم أطلب من السودانيين شيئاً ، فإن كانت حماستهم الوطنية قد دفعتهم إلى المساهمة فليس لى أن أحملهم على وقف شعورهم .

فلما أعياه إقناع الأستاذ قال له : إننى أكلمك كرئيس ، ويجب إبطال الاكتتاب فوراً منعاً للثورة . . ولم يكد الإمام يسمع كلمة « رئيس » حتى انبرى له . . وانتصبت قائماً وقال : كنت أفهم أنك تعلم واجبك . . إنه ليس لى رئيس هنا ، فإن الحاكم العام معين بأمر ملكى وهو الحاكم السياسى وأنا معين بأمر ملكى وأنا قاضى القضاة .

ولا إشراف لأحد منا على الآخر وتركه وانصرف . .

وقد اضطر مستر « دن » إلى إخطار الحاكم العام سير لى ستاك باشا ، بمصيفه فى « سنكات » بأن الأستاذ رفض الإذعان وأن الموقف أصبح حرجاً . . واضطر الحاكم إلى أن يعود من مصيفه لمقابلة الشيخ . .

وأرسل إليه يدعوه إلى تناول الشاى معه ، فلما ذهب الأستاذ بدأ السير لى استاك فى الحديث بأسلوب لبق . . قال « أنت تعلم ما فعله الإنجليز فى بلادنا وكيف هم عندنا مكروهون ولكنى حاكم إنجليزى ، فيجب أن أترك إرلندا وراء ظهرى كما أنك مصرى ، وأنا أشاركك فى الألم لما حدث . . من أعمال الإنجليز ، ولكنك هنا حاكم فى حكومة السودان . . وأنا وأنت مسؤولان عن حالة الأمن ، لأن الثورة إذا اندلعت فسوف تأخذنا معاً ، ومن شأن هذا النداء الذى وجهته أن يوقظ الثورة كما أبرق إلى كل مدير انجليزى فأرجوك وقف الاكتتاب .

. . فأجابه الشيخ المراغى فى هدوئه المعروف . . قال : لست أعجب أن يبلغك المديرون هذا ، فهم شبان صغار السن ، علموا تعليما خاصاً بالمستعمرات ، ليس عندهم من الخبرة أو المران السياسى ما يكفيهم لفهم الأمور على حقيقتها .

ولكننى أعجب لك أن تصدقهم . وقبل كل شىء أحب أن تعرف أن الثورة لا تخيفنى ، فإذا جاءنى السودانى رافعاً سيفه وقلت له : أشهد أن لا إله إلا الله فسيسقط سيفه من يده . .

وأنت تعلم أن الإنجليز فعلوا فى مصر الكثير ، وقتلوا شبابها ، وأثكلوا النساء ويتموا الأولاد ، ولم تأخذهم فى الناس رحمة ، وأسالوا الدماء ، ونصبوا المشانق فى كل مكان . . ! فكان لا بد أن يتأثر أبناؤهم وأهلوهم فى السودان ، والجيش المصرى كله هنا . . ولا شك أن وصول هذه الأنباء من شأنه أن يؤدى إلى إعلان الثورة عليكم هنا أيضاً ، غير أنى بما صنعت قد حولت التيار الدموى إلى تيار مالى ، لا يضر الإنجليز فى شىء ، وكنت أطمع أن أنال التقدير والشكر . . لا سيما من الحاكم العام .

وهنا بهت الحاكم ، وقال : . . إفعل ما تريد . . لقد قلت للانجليز هنا وفى لندن إن الشيخ المراغى لا يمكن مناقشته أو التغلب عليه ومن الصعب إقناعه ومضى محدثى يروى بقية قصة « البطولة المراغية » . . . فقال :

لقد استمر الاكتتاب إلى ميعاده الذى حدده الأستاذ ، وبلغ المبلغ المتجمع ، إلى ٦ آلاف جنيه تقريباً . . وهنا

كتب الإمام برقية إلى محمود باشا سليمان رئيس اللجنة المركزية للوفد، يخبره بشأن المبلغ المتجمع ، ويسأله كيف يدفع للمنكوبين .. ولما لم يصله رد ، نظراً لوجود الرقابة ، وعلم الأستاذ أن اللورد اللنبي أصدر أمراً بعدم إعانة المنكوبين أو الاكتتاب لهم . . اضطر إلى تأليف لجنة من كبار المصريين بالسودان للتصرف فى المبلغ ، وانتهى قرارها بتسليم المبلغ إلى الأستاذ محمد العشماوى (العشماوى باشا) الذى كان قاضياً مدنياً بالخرطوم إذ ذاك ليأخذه معه فى سفره إلى مصر على على أن يقوم بدفعه للجمعيات الخيرية الإسلامية ، والقبطية ، فى القاهرة ويرشدهم إلى أوجه الصرف للمنكوبين وفى هذا مخرج من الحظر الذى أمر به اللورد اللنبى وبعد هذا لم يجد الإنجليز بداً من السعى الدائب لنقل الشيخ المراغى إلى مصر أو منحه أجازة طويلة . . » .

وسكت محدثى ، ثم قال . . وهكذا ترك الإمام صفحة نقية غنية بالوفاء والوطنية . . . والرجولة نقدمها للذين طالما حملوا على الرجل حملات مغرضة . . . ليعرفوا إلى أى مدى وقف الرجل فى وجه الإنجليز . . . وكيف أدى واجبه الذى يعتقده — فى هذه الفترات العصيبة الحرجة من تاريخ وادى النيل . .

كم أفاد « الرجل » للإسلام ولمصر وللأزهر من هذه السفارة القوية . . خلال هذه الحقبة التى قضاها هناك . .

كم أفاد « الإمام » لشخصيته ولنفسه من التجارب والأسفار ومعرفة الرجال ودراسة المعالم . .

كان رجل مصر الرسمى فى ذلك الوقت . . فرفع اسمها عالياً ، وكان رجل الإسلام فأدى واجب الإسلام الحق . .

كان المراغى سفير مصر الذى يعطى كلمة الوحدة معناها ، بصورته ومظهره وخلقه ومركزه ، وحبه للسودان ، وحب السودانيين له . .

ذهب المراغى إلى السودان ، وأقام هناك ، فى الوقت الذى كان الناس يبغضون الاغتراب ، وعاش فى الجنوب سنوات طويلة فى جو يختلف عن جو مصر فكان من أعظم سفرائها ، وإليه يرجع الفضل فى توثيق الأواصر وربط عرى الأخوة . . .

إصلاح الأسرة
عن طريق التشريع

شغل الأستاذ المراغى بعد عودته من السودان فى الفترة ما بين ١٩١٩ ــ ١٩٢٨ المناصب القضائية التالية :

* رئيس التفتيش الشرعى بوزارة الحقانية .
* رئيس محكمة مصر الابتدائية الشرعية .
* عضو المحكمة العليا الشرعية .
* رئيس المحكمة العليا الشرعية .

وقد جفلت هذة الفترة « الثانية » من حياته بالأعمال والمشاريع والدراسات ، وكان أهمها « إصلاح الأسرة » .

وكان العمل فى محيط القضاء قد أتاح للإمام فرصة للدراسة الواسعة ، ولمعرفة الآلام الإنسانية فعمل على خدمة المجتمع عن طريق التشريع الإسلامى وعلى ضوء ما بدا له من مشاكل .

يقول فضيلة الأستاذ محمود جبريل «عندما عاد المراغى إلى مصر ، واشتغل بالقضاء كانت هناك قضايا اجتماعية تتعلق بالأسرة وحقوقها ، لم يجد القضاة لها حلا فى التشريع المعمول به ،

فأخذوا يجأرون بالشكوى مما يلاقونه من الحرج فى التزام مذهب الإمام أبى حنيفة فى التطبيق . . . ، وعلى أثر صدور حكم إحدى محاكم الوجه القبلى فى موضوع نفقة لزوجة غائب فى أبريل سنة ١٩٢٠ وضع أول قانون فى تاريخ القضاء الشرعى الحديث عدل به عن مذهب الإمام أبى حنيفة إلى مذهب الإمامين مالك والشافعى وشمل هذا القانون مسائل الاعتداد والتطليق بسبب الإعسار والغيبة ، والتفريق بسبب العيوب التى لا يمكن البرء منها ، وما يتبع بشأن زوجة المفقود ، وهو القانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٠ الذى صدر فى يوليو من ذلك العام .

وبه وجد القضاة المخرج من الحرج الذى كانوا يتعرضون له عند الفصل فى هذه الخصومات فقد عالج القانون مسائل الطلاق والضرار والتحكيم والتطليق على المسجونين دفعاً للضرر ووقاية للأخلاق كما عالج مسائل النسب » .

وحدثنى فى هذا الشأن الأستاذ محمود السيد سكرتير مكتب الأستاذ الإمام فى الأزهر ، قال . . . « كان الإمام المراغى مجدداً فى كل عمل تولاه ، قاضياً ، مفتشاً للمساجد ، رئيساً للمحكمة . . وكان من أهم ما شغله مسألة الأسرة . . والتطرف فى بعض المذاهب ومن هذه المسائل التى عنى بها وعالجها .

أولا : كانت تستطيع المطلقة أن تحصل على نفقة مدى الحياة ما

دامت تدعى أن عدتها لم تنقض بعد .

ثانياً : كانت المرأة التى غاب عنها زوجها ، لا تستطيع أن تتزوج إلى مدى بعيد .

ثالثاً : كان ابن الأبن (الحفيد) الذى يموت أبوه فى حياة أجداده ، يحرم من الثروة ، لا لسبب إلا لأن أباه كان قصير الأجل .

وقد عمد الأستاذ إلى إصلاح هذه العيوب فى أمور الأسرة، فأمر بتشكيل لجنة إطلق عليها لجنة تنظيم الأحوال الشخصية . . برئاسة فضيلته ، وقد بحثت اللجنة هذه الأمور وغيرها ، واستطاعت أن تجد فى المراجع الإسلامية ما يرفه عن الأسر ، وما يعفى الزوجة من نفقة العدة ، وكذلك فيما يتعلق بالطلاق فقد نزه الطلاق عن أن يكون قسما وحال بين وقوع الطلاق بقول واحد (الطلاق بالثلاثة) » .

وقد افتتح فضيلته اجتماعات هذه اللجنة بكلمة ضافية بين فيها مهمتها ومما قاله : « إن إصلاح القانون إصلاح لنصف القضاء، أما النصف الآخر فهو بيد القاضى نفسه لأن عليه أن يفهم الوقائع أولا كما هى ، بعد تلمس أدلتها ونقدها والموازنة بينها » .

ومما روى أن « الإمام » كان يقول لأعضاء اللجنة « ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان وأنا لا يعوزنى

بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ماوضعتم».

وهذه هى بذور« الإمامة » فى المراغى وعلامات «الاجتهاد»

وكان الإمام المراغى يقول (١) : إن الشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة مما يجعلنا نجد فى تفريعاتها وأحكامها فى القضايا المدنية والجنائية ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت ، وما يوافق رغائبنا وحاجاتنا ، وتقدمنا ونحن فى ذلك كله ، ملازمون لحدود شريعتنا ، ولكن فريقاً من متأخرى العلماء رأوا أن كل ما جاء فى كتب الفقه من المتون والحواشى والآراء المصيبة والمخطئة كل ذلك من الدين ومن أصوله . التى يجب أن نتمسك بها ولا نحيد عنها وهم مخطئون فى هذا الفهم ، إذ أن من ينظر فى كتب الشريعة الأصلية بعين البصر والحذق ، يجد من غير المعقول أن نضع قانوناً أو كتاباً أو مبدأ فى القرن الثانى عشر من الهجرة ، ثم نجىء بعد ذلك فنطبق هذا القانون أو المبدأ سنة ١٣٥٤ ، وأن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة ، وما وقع بينه وبين أصحابه محمد وزفر وأبى يوسف ، وبينهم هم ، يجد أن التجديد فى الأحكام الشرعية ميسور لنا ، وفى أهون مستطاعنا ويجد أن بطلان الدوام لأحكام معينة وبقاءها حيث يبقى الدهر من الأمور البدهية ، ومعنى هذا أن المسائل الفقهية ما دامت

(١) نقلا عن مذكرة وجدتها عند الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى .

غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير .

وقد أدى المراغى بهذا ، للأسرة وللمجتمع ، خدمة جليلة القدر ما تزال بعيدة الأثر فى إصلاحهما ، ومسايرتهما لتطور الزمن .

قضية النار

من الناس أفراد قلائل ، يؤمنون بالحق ، ولا يبالون فى سبيل عقيدتهم ، أى بلاء يصبه عليهم خصوم الحق جزاء تمسكهم وإيمانهم به .

ولقد حدثنا التاريخ عن حفنة من هؤلاء .. تعد على الأصابع ولكننا لم نلبث أن « عاصرنا » حدثاً من هذه الأحداث ، يقع لإمام جليل ، كان يجرى على سنة هؤلاء السلف من الصالحين فى قول الحق ، واحتمال ما يجره من أذى وبلاء . . .

كان المراغى فى تاريخه كله ، يقول الحق ، ولا يبالى الوعد أو الوعيد ولا تثنيه عما اعتقده أسباب الإغراء ، أو التهديد ، مهما كان مصدرها . . .

وقد احتمل من جراء ذلك عنتاً كبيراً ، وجرت عليه خلته هذه خصومات طويلة المدى . . ، ولكن ذلك لم يفت فى عضده ولم يحوله عن « اليقين » الذى اعتقده وآمن به ، وعاش له . . .

ومن أروع هذه الأحداث « قصة النار » أو قضية النار

حدثنى الأستاذ عبد الحميد رشوان قال :

اعتدى على الشيخ المراغى بماء النار سنة ١٩٢٦ . . وكان فى طريقه إلى المحكمة ، يتلو بعض آيات من القرآن . . . واتهم فى ذلك رجل كانت له قضية بالمحكمة العليا ، حكم الشيخ المراغى فيها بعدم الاختصاص ، وكان المجلس الملى قد حكم برفض بنوته إلى فلان باشا . . . فرفع التماساً للمحكمة العليا الشرعية عن هذا القرار وقد أغراه بعض المحامين الشرعيين بأنه لا أمل له فى كسب القضية ما دام الشيخ المراغى هو رئيس الجلسة ، وكان هذا الاعتداء قبلها بيوم واحد . . والغرض منه منعه من نظر القضية والحكم فيها .

. . وسارت النيابة فى التحقيق ، ووصف الشيخ شخصية المتهم وصفاً دقيقاً للنائب العام (طاهر باشا نور) الذى تولى التحقيق .

. . وأخذت القضية دورها ، إلى أن وصلت إلى محكمة الجنايات فحكم على المتهمين الثلاثة ، ومنهم « فلان » هذا بأربع سنوات سجن وألفى جنيه تعويض . . وقد رفع « فلان » نقضاً إلى رئيس محكمة النقض وبذل أعوانه — وهم أثرياء — كل المستحيلات ، وذهب هو وأهله فى ذلك إلى أبعد حد . . واستعملوا الشريف وغير الشريف من الوسائل . .

ومضى محدثى يقول :

وهنا أبلغت الشيخ بما يحاك حول القضية من دسائس وقلت له . . . : إنك يا سيدى تستطيع أن تقول كلمة واحدة ، لأحد ذوى السلطان ، فتشعر الجميع أن العيون مفتحة لما يدبر فى الخفاء .

فقال لى الشيخ . . أنا لا أشكو قضاء مصرياً . . ، ولو فعلت لكانت أكبر حجة عند الإنجليز . . فليحكموا بما يشاءون ، . . . وفعلا قبل النقض ، وأعيدت المحاكمة وخفض الحكم من ٤ سنوات إلى سنة ونصف . . كان « فلان » قد قضاها فى السجن . . .

ومما يذكر فى هذه المناسبة أن كان عبد الهادى بك الجندى يزور الشيخ ، على أثر إصابته . . فقال له : كنت أزور الأستاذ أحمد بك لطفى المحامى فقال لى إن أعوان « فلان » عرضوا عليه ألف جنيه ليترافع عن المتهم فرفض . . وقال : أنا لا أترافع عن رجل اعتدى على رأس القضاء الشرعى . . وأنا لا أعرف الشيخ المراغى ، ولكنى على استعداد للدخول فى القضية كمدع مدنى ، متى طلب منى ذلك .

فشكر الشيخ سعادة أحمد بك لطفى : وقال جزاه الله عنى خيراً . . وليس عندى ما يمنع من أن يكون مدعياً مدنياً عنى . . . . وبعد فترة من الوقت جاء أحد كبار المحامين المعروفين

بمواقفهم . . . ، لا سيما فى حادث دنشواى وألح فى أن يكون وكيلا عن الشيخ فى هذه القضية ، فرفض الشيخ وقال : إننى لا أسمح بضم أى محام مهما كان إلى أحمد بك لطفى لأنه هو الذى تفضل بقبول المرافعة . .

فلما ازداد إلحاحه قال له : اذهب واتفق مع أحمد بك فإن وافق فلا شأن لى . .

وقد توجه هذا المحامى ، إلى أحمد بك ، فرحب به وضمه إليه وقال : كلنا نريد خدمة العدالة والشيخ .

ومضى محدثى يقول :

وقمت بشراء رول القضية للمحامى الجديد ، الذى ترافع فى أول جلسة ثم أجلت القضية إلى ما بعد الصيف .

. . وذات يوم فبينا أنا جالس مع الإمام المراغى ، إذ دعى إلى التليفون وسمعت الشيخ يقول : إن كان ضميرك يسمح ، فلا مانع ، أنا لا أجبرك . . فلما عاد استفسرت منه عن الأمر فحدثنى فضيلته أن المحامى الأخير – طلبنى يعتذر عن السير فى القضية ويقول إنه جد له من الظروف ما يدعوه أن يدافع عن الخصم . . .

وضقت بالأمر وقلت للشيخ رضى الله عنه ، كيف يمكن أن يترافع هذا المحامى عنك أولا ، وبعد أن يدرس القضية ،

ويعرف أسرارها ، يترافع ضدنا فقال : لا حيلة لى فى هذا .. ما دام ضميره قد سمح له ..

وفعلا ترافع المحامى فى هذه القضية ، وكان لساناً غاية فى الحدة والإساءة ..

... ثم حكم لمصلحة الشيخ .. وقضى له بالتعويض وقدره ألف جنيه وقد أرسله إلى عائلة أحمد بك لطفى .. إذ كان قد توفى إلى رحمة الله .. »

ونحن نسجل هذه القضية ، كما رواها لنا ، محدثنا ... نسجلها ، كصفحة ناصعة من صفحات الإمام المراغى ، فيها كل شىء : الوفاء والنبل والرجولة والخلق ، وصدق المطران جوين « مطران الشرق » حين قال للشيخ عند ما زاره فى المحكمة العليا الشرعية « إن الأثر الموجود فى عنقك هو نيشان العدالة » .

* * *

كان من أبرز صفات المراغى أن يقول كلمة الحق ، دون أن يخشى نتائجها أو عقابيلها ، وقد احتمل فى سبيل الحق أثراً ظل بارزاً فى عنقه طوال حياته ، وكان هذا الأثر يعطى فى كل لحظة ، الرمز الحقيقى لإيمان الرجل بفكرته وتضحيته فى سبيلها .

بين محمد عبده والمراغى

وراث له طابع خاص

لم يثبت على وجه التحقيق أن « المراغى » تلقى على الإمام محمد عبده كثيراً من دروس الأزهر ، ولكن الثابت اليقين أنه استمع إلى دروسه الحرة فى الرواق العباسى ، وكانت فى التاريخ والاجتماع . . ويغلب أن الشيخ عبده كان يقرأ مقدمة ابن خلدون ويشرح بعض فصولها . . على طريقته الموسوعية . . .

وأعجب المراغى بالشيخ عبده ، وارتبط به وأمضى أيامه فى الأزهر ، على ذلك النحو الذى وصفناه ، يقرأ تقاريره وحواشيه ومتونه ، ولكنه لا يلم به كثيراً . . . ، وأتاحت له فترة الدراسة فرصة تكوين الآراء التى ترجمها إلى أعمال حاسمة فيما بعد[1] . . .

---

(١) كان الشيخ محمد عبده هو الذى يمتحنه فى شهادة العالمية ، وكان الشيخ المراغى قد مرض قبيل الامتحان ولكن أصر على الذهاب فلما انتهى الامتحان قال له الشيخ عبده : لاحظت أنك محموم ، ولكنك كنت فوق الإجادة وظهرت النتيجة وإذا المراغى أول العالمية وقد دعاه الشيخ عبده إلى منزله تكريماً له .

واستمع الأستاذ المراغى لصيحة محمد عبده ، تلك الصيحة الأولى ، لإصلاح الأزهر ، فى أناة وثقة . . ، وظلت هذه الثورة كامنة فى نفسه ، حتى أحالها بعد بضعة وعشرين عاماً إلى حقيقة واقعة .

ولما طلبت حكومة السودان من الشيخ عبده اختيار قضاة الشرع فيها كان المراغى فى مقدمة من اختارهم لأداء هذه المهمة.

وذهب المراغى عشية السفر يودع الشيخ ، . . يقول : ودعته ليلة سفرى إلى السودان لتولى قضاء مديرية دنقلة فى نوفمبر سنة ١٩٠٤ فسألنى هل معك رفقاء السفر ، فقلت نعم ، بعض كتب آنس إليها وأستديم بها اتصالى بالعلم فقال : أو معك كتاب الإحياء . فقلت نعم قال : الحمد لله . . هذا كتاب لا يجوز لمسلم أن يسافر سفراً طويلا دون أن يكون رفيقه . . »

هكذا كان يرى الإمام محمد عبده « الغزالى » . . وهكذا كان يعرفه المراغى .

لقد كان المراغى يحب الغزالى ، وهو يسجل ذلك فى مقدمة كتاب الدكتور أحمد فريد رفاعى إذ يقول : إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه التفكير إلى ما امتازوا به من العلم وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابى خطر بالبال فيلسوف عظيم من فلاسفة الإسلام .

وإذا ذكر ابن عربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها ، وإذا ذكر بالبال البخارى ومسلم وأحمد خطر رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ، لكل واحد قدرته وقيمته .

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الحاذق الماهر ، والغزالى الفقيه الحر ، والغزالى المتكلم أمام السنة ، وحامى حماها ، والغزالى الاجتماعى ، الخبير بأحوال العلم ، وخفيات الضمائر . . ومكنونات القلوب ، والغزالى الفيلسوف ، الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف . . ، والغزالى المربى ، والغزالى الصوفى الزاهد .

وإن شئت فقل ، إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، ورجل متعطش إلى معرفة كل شىء ، نهم إلى جميع فروع المعرفة »

* * *

هذا هو الغزالى الذى أوصى به محمد عبده وأحبه المراغى . .
وقد ظل المراغى معقود الأواصر بالإمام . . ، خلال إقامته فى

السودان ، وتبادلا رسائل غاية فى الجلال والخطر . فى شئون الدين والوطنية ، وما زالت تشهد على تلك العاطفة القوية ، والرابطة الحية بين رجلين من أبرز رجال تاريخ الشرق الحديث يقول مؤلف كتاب الإسلام والتجديد :

« ومن تلاميذ الإمام ، الشيخ محمد مصطفى المراغى الذى اصطلحت صحافة العصر الحاضر على وصفه بأنه أكبر تلاميذ الإمام ، كان شيخاً للأزهر من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٠ ، فاهتم بإعادة تنظيمه على نحو واسع النطاق حتى يتفق وحاجات العصر الحاضر فى مصر وقد صدرت خطة الإصلاح التى وصفها فى القانون المعروف بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ .

« غير أن الشيخ المراغى لاقى الشىء الكثير من معارضة الإصلاحات التى كان يبغيها فاستقال من المشيخة ، وكانت الصحف فى سنة ١٩٢٩ — أى أثناء مشيخته الأزهر — تكتب كثيراً عن أمر كان له حسن القول هو تخليد ذكرى الإمام ، إما بالاحتفاظ بمنزله فى عين شمس ، إما بالقيام بأى عمل آخر من الأعمال التى تدل على التقدير القومى ، وكان من المتفق عليه بشكل عام أن أليق الناس للنهوض بهذا هو الشيخ المراغى ، إذ هو شيخ الأزهر ، وله بالشيخ عبده صلات قوية قديمة ، ولكن الشيخ المراغى استقال من الأزهر ولم نعد نسمع شيئاً عن هذا الأمر .

وكان الشيخ المراغى قبل هذا قاضى القضاة الشرعيين فى السودان وقد أسند إليه هذا المنصب بسعى أستاذه الشيخ عبده ، واشتغل فى السودان عدد آخر من تلاميذ الإمام إما قضاة أو مدرسين ، فى كلية غردون التذكارية » اهـ.

* * *

عند ما قضى الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٦ . . قال الناس : من للأزهر . . ! وذهب ناس فى التشاؤم فقالوا : لقد أصبح الأزهر ميراثاً لا وارث له . . .

غير أن هذا كله كان وهماً من الوهم ، فقد كان المراغى هو أبلغ «إجابة» على الذين حملوا على الأزهر ، أعنف الحملات ، ووصموه بالرجعية والتخاذل ، والقصور عن المدنية . . ، وعدم الاستجابة للتطور .

وكان إلى ذلك رد « اعتبار » لما وجه إلى علمائه من عجز عن فهم رسالة الثقافة والحضارة واللحاق بموكبها واستجابة للصالح منها .

وبالرغم من أن المراغى كان أحد أبناء المدرسة السلفية التى وضع بذورها الإمام محمد عبده ، فقد كان فى منهاجه وعمله وأهدافه جديداً فيه طابع الاستقلال والذاتية الخالصة .

كان المراغى يختلف عن كثير من تلاميذ الإمام ، كان

أكثر تحرراً وأوسع أفقاً ، وكانت أسلحته ، وأساليبه ، فى الدعوة إلى الإصلاح ، وإنفاذه ، تختلف عن أساليب من سبقوه أو عاصروه .

لقد كون رأياً عاماً فى ميدانه ، وهو ما لم يتمكن غيره من تحقيقه ثم استطاع أن يقبض على ناصية الأمور ، فى قوة ، وفى لباقة وهو ما لم يتم لأحد من قبله بعد أن تجنب الكثير من أخطاء من سبقوه . . ، واستفاد مما ألم بهم من متاعب وأزمات .

* * *

لقد تسلم المراغى ميراث المصلحين ، السابقين ، وورث ذلك التراث العريض الذى يتمثل فى ابن تيمية ، والغزالى . . والذى يتصل بجمال الدين ومحمد عبده وبالرغم مما بين هؤلاء ، وهؤلاء . . من خلاف ، فقد أخذ خير ما عندهم جميعاً . .

كان جمال الدين يرى إصلاح الحكومة الإسلامية .

وكان محمد عبده يرى تربية جيل جديد صالح .

وكان كل منهما يصدر عن طبيعته وفى حدود الأسلوب الذى يراه سبيلا إلى تحقيق نهضة الشرق غير أن المراغى كان لا يرى مانعاً من الأخذ بالوسيلتين معاً . . على أساس تربية جيل جديد ، وتوجيه الحكومات الوجهة الخالصة .

ثم ركز جهوده فى الأزهر ، حرصاً على تخريج طائفة

ممتازة تحمل رسالة الدين والدنيا معاً ، ولكنه لم يغفل عن الإنسانية العامة ، أو السياسة أو المجتمع . . ، فكان له فى ميادينها آراء حصيفة ، إذ كان شديد الإيمان بأن الإسلام جامع يتسع لكل جوانب الإصلاح ، ويستطيع أن يمد بأصدق التجارب التطبيقية فى مختلف جوانب الحياة العامة .

كان المراغى يرى الدين كما رآه السلف الصالح يسيراً بسيطاً .

وكان يؤمن بالإصلاح والتجديد والاجتهاد ، كما رسمه ابن تيمية وابن القيم .

وكان يؤمن بأن الفقه والتصوف يمكن أن يجتمعا كما كان يرى الغزالى .

وكان يرى فى إصلاح الأمة الإسلامية رأى جمال الدين

ويرى فى إصلاح الأزهر رأى محمد عبده .

* * *

ورث المراغى هذا الميراث العريض بحق . واستوعب ذلك التراث الإسلامى الضخم استيعاب فهم وتدبر . . وتطبيق . . ، فكان رضى الله عنه ظاهرة جديدة ، فى عالمه وطريقته . .

كان إنساناً مميز الطابع والصورة والمظهر . . كان عبقرياً ، ظل يتخفى فى إهابة حتى جاء يومه ، اليوم الحق الذى وضعه

الله فيه ، فى المكان الحق .

. . وهكذا ورث المراغى أمجاد أسلافه ، فى الإصلاح والدعوة والأزهر جميعاً ، فكان بحق الخليفة الحق الذى يملأ الفراغ ، ويرأب الصدع .

* * *

وظل « المراغى » ، يحفظ لأستاذه « محمد عبده » فضله ، وكان وفياً . . . غاية الوفاء دعا إلى إحياء ذكراه فى ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ . .

ولم يدع فرصة يذكر فيها فضل محمد عبده إلا انتهزها . .

وعند ما احتفل بتكريمه فى يونيو سنة ١٩٣٦ عند ما عاد إلى منصبه فى الأزهر ، فى ذلك المهرجان الضخم الذى ضم عدة آلاف من رجالات مصر وشبابها ، لم يلبث المراغى أن ذكر محمد عبده وقال عنه إنه هو المصباح الذى اهتدى به . .

ولم يقف الوفاء عن حد الكلام . . يقال أو يكتب ، فى حفلات الذكرى ، أو فى الصحف ، بل لقد بلغ حده المأمول عند رجل له مثل نفسية الإمام المراغى ، هذه النفس الخيرة الوفية التى تذهب فى الوفاء إلى آخر الشوط .

حدثنى الأستاذ عبد الحميد رشوان سكرتير محكمة عموم السودان ، وقد رافق الإمام أربعين سنة قال :

كانت السيدة رضا بنت سعد بن حمادة حرم الأستاذ الشيخ محمد عبده تتناول معاشاً شهرياً قدره جنيه ونصف فقط من الحكومة ، وبعض مرتبات من الجمعية الخيرية الإسلامية والخاصة الملكية ، لا يتجاوز فى مجموعها ثلاثين جنيهاً ، وكانت سيدة كريمة لا ترد سائلا ، وكان يتردد عليها كثيرات من المحتاجات حتى ركبتها الديون واستدانت أكثر من ثلاثمائة جنيه ، وكانت هناك سيدات كريمات منهن والدة المغفور له محمد محمود باشا يساعدانها على سبيل القرض ، حتى استبد بها الحال .

علمت هذا فأبلغته للأستاذ الإمام المراغى فى منزله بحلوان فهاله الأمر وأمرنى بالتثبت فأكدته له ، وكان صاحب المقام الرفيع على ماهر باشاً وزيراً للمالية ، وصاحب الدولة محمد محمود باشا رئيساً للوزراء فاتصل بهما وبعد يومين طلبنى الأستاذ وقال أخبر السيدة أن المعاش رفع إلى خمسة عشر جنيهاً ، وبعد أيام قليلة طلب منى أن أرافقه إلى منزل الشيخ عبده لمقابلة السيدة حرمه ، فانتظرته أمام قهوة البسفور وذهبنا معاً إلى عين شمس .

ولم يخبرنى طوال الطريق عن غرضه واستأذن على السيدة التى قابلته ومكث معها أكثر من نصف ساعة بمنزل المرحوم حموده بك عبده . . ثم انصرفنا ولم يحدثنى بما فعل . . ولما مررنا

على منزل الأستاذ الشيخ محمد عبده . . نظر إليه متأثراً وقال : كان هذا المنزل محط الآمال ، وأمل كل طالب . .

غير أنني علمت بعد ذلك من السيدة رحمها الله ، أن الإمام المراغي طيب خاطرها واعتذر لها بأنه لم يكن يعلم حالها ، ووضع في يدها خمسمائة جنيه لسداد ديونها وسد حاجاتها . . ، وطلب منها أن تخبره عن كل حاجاتها بعد ، ولكن الموت عاجلها فقد كانت مريضة ، بعد أن قامت بسداد ديونها . . وعاشت بقية أيامها في حالة يسر ورخاء .

شيخ الأزهر

١
أربعة عشر شهراً

اختير الأستاذ المراغى شيخاً للأزهر سينة ١٩٢٨ فأمضى بها أربعة عشر شهراً . . . ولا شك أن هذه الفترة القصيرة . . كانت من أخطر فترات الأزهر وأجلها شأناً ، فقد وضعت البذور ، ثم تركتها تعمل عملها ، حتى آتت أكلها بعد خمس سنوات .

كان إقبال المراغى إلى الأزهر أشبه بالضياء الساطع الذى جاء بعد ظلام طويل . . ، وبين وفاة الإمام محمد عبده ، ودعوة المراغى ربع قرن كامل من الزمان عاش الأزهر خلاله تلك الحياة التقليدية المضطربة ، غاية الاضطراب ، الجامدة غاية الجمود .

لا ننكر أن ضوءاً خافتاً ، ظهر مرة ، أو مرتين ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن أمراً حاسماً قد قطع به بشأن التجديد والإصلاح ، أو أن شيخاً معيناً وضع رأسه على كفه فى سبيل

تحقيق رسالة الاجتهاد أو الإصلاح .

ولا شك أن الفترة الطويلة التي قضاها الإمام «المراغي» بعيداً عن الأزهر قد منحته خبرة وتجربة طويلتين ، وهيأ له هذا البعد عن مركز الأحداث ، فرصة للدراسة والتأمل العميقين .

ومن ثم كان علاجه للأمور ، غاية في السداد ، وكان أسلوبه في وضع الخطط الصالحة مقبولا نيراً . .

لا أقصد بهذا إلى أن « الظروف » هي التي أتاحت للإمام المراغي الفرصة ليكون عملاقاً في تاريخ الأزهر على هذه الصورة الباهرة . . ، وإنما كان الشيخ المراغي ، يؤمن بالأزهر منذ كان فيه طالباً . كان يؤمن بالإصلاح ، ويهوى أن يتم الرسالة التي بدأها أستاذه محمد عبده . فلما أتيحت له الفرصة ليلي هذا المنصب الضخم استطاع أن يحقق الأمل المنشود على أوسع نطاق وأروع صورة . .

ظل المراغي بعيداً عن المحيط « العملي » للأزهر ، ربع قرن من الزمان ، فلما عاد كان أشبه بالرجل الذي وقف على الشاطئ طويلا ، يرقب الأمواج ، ويسبر غور البحر ، فلما نزل إليه بعد هذا الترقب ، والتحفز الطويلين ، كان أقدر الناس عليه ، وأملك الناس لزمامه .

. . إن ابتعاد « المراغي » عن جو العمل في الحياة الأزهرية ،

وما كان فيها طوال تلك الفترة من تيارات ودوافع ، كان على ما يبدو من الخير للأزهر . .

ولو أن الإمام المراغى ، كان مدرساً[1] بالأزهر ، طوال هذه الفترة ، ثم وصل إلى المشيخة بعد ذلك ، لما أمكن أن يحقق برنامجه ، وينفذه على هذه الصورة الفريدة ، ولا أن يجمع حوله القلوب ، على هذه الصورة التى لم تتيسر إلا للقليل من القادة والزعماء والأبطال الشعبيين .

. . إن هذا الجنوح عن الأزهر من غير قصد ، أو تدبير ، أعطاه الفرصة الواسعة لدراسة الأزهر عن كثب ، ومراقبة تطور الحوادث هناك ، فلما اختير لمكانه الحق ، المكان الخليق به ، كان قد جاء فى إبانه ، أشبه بالغيث حين يقع على الأرض المجدبة .

. . إنه جاء فى الوقت المناسب الذى يستطيع أن يعمل فيه للأزهر كل شيء ، وأن يحقق الآمال التى ظلت تضطرم فى صدره ، وتترقب الفرصة ، فأدى واجبه كاملا ، وأنفذ مشروع أستاذه محمد عبده . . على صورة تجلى فيها طابعه الخاص على أوسع نطاق . . .

---

(١) هذا لايمنع من الإشارة إلى أن الأستاذ المراغى درس للأزهريين عدة مرات على فترات متفاوتة قليلة . .

وقد كان من نتيجة هذا التدبير الإلهى الذى لم ترسمه يد البشر ، أن نجح الإمام المراغى إلى أبعد حد . .

وليس أدل على ذلك ، من أنه ما كاد يضع قدمه فى الأزهر حتى تجمعت القلوب حوله ، على صورة لم تسبق لشيخ من شيوخ الأزهر من قبل . فلما تقدم الإمام ببرنامجه ، ولم يستطع أن يحققه على الصورة الكاملة التى رسمها ، ووجد العقبات تتجمع فى طريقه ، استقال فى أكتوبر ١٩٢٩ بعد أن أمضى فى منصبه أربعة عشر شهراً غير نادم .

وكان ذلك من التقاليد الجديدة التى سنها الإمام الجليل ، فلم نسمع من قبل أن شيخاً من شيوخ الأزهر قد وضع مثل هذا البرنامج ، فلما لم يتحقق مشروعه على أكمل وجه ، استقال على هذا الوضع الفريد . .

لقد خلب هذا ألباب الشباب المتحمس المؤمن بالإصلاح ، الذى كان قد بدأ يضع آماله فى الرجل الفرد ، فكانت الاستقالة تزكية لشخصية الإمام ، رفعت قدره فى نظر التلاميذ — وكان رفيع القدر من قبلها — إلى أبعد الحدود

كان تصرف الإمام المراغى « حدثاً » فى تاريخ الأزهر ولا شك ، وهو السر فيما دفع الأزهر إلى الثورة من بعد .

كان الإصلاح فى دم المراغى ، فلما جاء إلى الأزهر ،

كان لا بد أن ينفذ وصية شيخه ، وأن يحقق رسالة آمن بأنها العلاج الوحيد لجسد طال به السقام . . .

لقد وضع حياته فى خدمة هذه الرسالة ، وصدق الله فى إيمانه بها ، فكان حقاً على الله أن ينصره .

كان ثورة على الخمول والجمود والكسل والرجعية والتقليد فكتب مذكرته الخالدة بدم القلب . . ، كان كل حرف فيها عن تجربة من صميم الحياة ، وعن عبرة فى أعماق النفس . .

ولا شك أن هذه الرسالة التاريخية الضخمة ، تعد من أعظم دقائق الأزهر فى تاريخه الطويل . . والتى لا يضارعها فى تاريخ الأزهر الفكرى نفسه، شىء ما . .

وإن كانت تبدو هذه الرسالة — الآن — أنها عادية ، فقد كانت فى ذلك العهد البعيد ، أشبه بقنبلة مدوية، انفجرت فى محيط هذا الحصن العتيد .

كان العلماء يمضون فى الطريق المرسومة التقليدية ، الحياة الرتيبة المحملة بمتاعب الماضى وغباره ومساويه . . ، والكتب الصفراء المزعجة ، وطريقه التدريس العقيمة ، الجلوس إلى الحصر ، الحلق حول الأعمدة ، الجراية . . .

وبينما كان الأزهر كذلك ، كانت الدنيا فى خارج محيطه تزلزل ، بالنظرات الجديدة ، وكان حملة ألوية التجديد الفكرى

يقرعون الأبواب فى قوة .. وعنف ، ويتحدثون عن حضارة الغرب ، وينعون على الشرق ، هذا الإسلام الجامد ، الذى كان إذ ذاك ممثلا فى الأزهر ورجاله . .

وكان يشارك فى هذه الحركة الجديدة « شباب » من الأزهر نفسه ، ممن ضاقوا به من قبل ، وتركوه . ولحقوا بركب النهضة .

بينما كان هذا يحدث ، كان الأزهر نائماً ، وكان مصيره ولا شك يتقرر فى هذه المعركة الجديدة الحاسمة . . التى كانت تريد أن تنكر تاريخ الشرق ، وأمجاده ، وتراثه ، ودينه جميعاً .

٢
منهاج

وفى يونيه ١٩٢٩ حصل محرر « الهلال » على حديث من الإمام المراغى رأينا أن نسجله هنا صورة صادقة لهذه الحقبة من حياة العالم الكبير قال :

« الشيخ المراغى رجل يتوسم فيه الصراحة ، يخاطبك فى تؤدة وكأنه يناقشك فيتلو عليك البرهان بعد البرهان ، وهو رجل دين قبل كل شىء ، ولكن ما أغرب ما يؤثر فيك كلامه وحديثه إذ تشعر منه أنه ليس فى الإسلام كهانة ، وهو ينظر بعينين ملؤهما الإخلاص ، تتجلى فيهما الحماسة عند ما يذكر عيوب الأزهر وطرق إصلاحه

وقد تخرج من الأزهر سنة ١٩٠٤ وحضر دروساً للشيخ محمد عبده وتعين قاضياً فى دنقله وبقى بالسودان مدة غير قصيرة عاد بعدها إلى مصر حين تعين مفتشاً دينياً فى وزارة الأوقاف وتعين بعد ذلك قاضى قضاة السودان ، ثم رئيساً للمحكمة الشرعية فى مصر ، ثم شيخاً للأزهر الشريف .

وربما كان أول شيخ للأزهر له سكرتير من طبقة الأفندية[١]

— بعد خمس سنوات أى سنة ١٣٥٣ يكون قد مضى على الأزهر ألف سنة أفلا تظنون فضيلتكم أنه يجدر بنا الاحتفال به باعتباره أقدم جامعة فى العالم ، وهل تعتقدون أن يكون الاحتفال مقصوراً على الشرقيين أو يدخل فيه الغربيون أيضاً .

— إن على باشا مبارك يذكر فى خططه أن الأزهر أسس سنة ٣٦١ فيبقى لنا ١٢ سنة حتى يتم الأزهر الألف ، وقد فكرنا فى هذا الاحتفال عند ما شرعنا فى وضع الترسيم لبناء جديد لكليات الأزهر ، وكانت نيتنا أن نجعل الاحتفال بالبناء الجديد احتفالا بمرور ألف سنة على الأزهر ، ولكن يظهر أننا سنضطر إلى الاحتفال بالبناء أولا ، أما الاحتفال بمرور ألف سنة ففكرة جديرة بالتنفيذ ورأيى أن يكون عاماً يدعى فيه علماء الغرب والشرق .

— ما هو انتقادكم على الأزهر بحالته الراهنة

— كان الأزهر قديماً يسد حاجة البلاد لأنه لم يكن يعرف فى مصر معهد للتعليم يفضله ، وكان علماؤه إلى زمن محمد على

(١) يقصد الأستاذ محمود السيد .

مجموعة المتعلمين فى القطر ، ولم يكن الناس يشعرون بالحركة العلمية فى الخارج ، ولا يعتقدون أنه فى الإمكان أبدع مما فى الأزهر ، ولكن انتشار المدارس النظامية وانتشار المطابع والمجلات وحركة الرقى العام فى الأمة — كل هذه كان من شأنها أن تجعل الناس ينظرون إلى علماء الأزهر نظرهم إلى الشخص الذى لا يكفى حاجة الناس ، وأرادت الحكومة أيام على مبارك باشا أن تأخذ من الأزهر علماء للتعليم فلم تجد كفايتها لأن طريقة التعليم القديمة ، لم تكن تلائم حالة النشء ، ولهذا السبب اضطرت الحكومة إلى إنشاء « دار العلوم » وجاءت بالطلبة من الأزهريين أنفسهم ومن هذه المدرسة تخرج معلمو اللغة العربية فى المدارس الأميرية ، وأرادت الحكومة أيضاً أن تصلح القضاء الشرعى فلم تستطع أن تعول على علماء الأزهر فاضطرت إلى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى ، فهذا الأزهر الذى يختص بدرس الدين واللغة لم تجد الحكومة فيه حاجتها من علماء الدين واللغة واحتاجت إلى إنشاء مدرستين خاصتين لها ، بل لقد أرادت وزارة الأوقاف فى العام الماضى إنشاء مدرسة للوعظ والإرشاد لأنها ظنت أن علماء الأزهر غير قادرين على تأدية هذه المهمة ، وكان لهذه المدرسة مخصصات فى ميزانية سنة ١٩٢٨ فتدخلت أنا ومنعت إنشاءها اعتماداً على

أننا نستطيع بإصلاح الأزهر أن نستغنى عنها

ــ ما هو السبب فى عجز الأزهر فى هذه الشئون

ــ هو الاقتصار على اللغة والدين دون ما يلامسهما من العلوم الكونية التى ترتبط بها ، فرجل اللغة يجب أن يدرس الأدب ، والفقيه يحتاج إلى المسائل الاجتماعية ، وقد كان المتقدمون من الفقهاء يدركون القيمة فى درس العلوم التى ترتبط بالدين ، بل كانوا يبالغون أحياناً فى ذلك حتى أن فخر الدين الرازى عند ما فسر القرآن تمادى فى شرح العلوم التى تتصل بالتفسير بحيث يشعر القارئ أنه أهمل التفسير أو اختصره مع بسط الكلام فى هذه العلوم .

فالأزهر فى حاجة إلى أن يدرس طلبته العلوم الكونية لكي يدرسوا العلوم الدينية ، ونحن عاقدون النية على أن نلغى مدرستى القضاء الشرعى ودار العلوم ونحيي علومهما فى الأزهر .

وقد اخترنا معلمين أكفاء لقسم التخصص من العلماء وغير العلماء للقيام على تدريس التاريخ والأدب والأخلاق والتربية والفقه .

وهناك ظروف جعلت الأزهر يتدهور فإن نظام الجراية جعل القادر على التعلم ينصرف إلى مدارس الحكومة وغير

القادر ينصرف إلى الأزهر ، وكانت أبوابه مفتوحة لكل طارق ، وكان فى هذه الحراية ما يرغب بعض الطبقات فى الاتصال به ، فناء الأزهر بكثرة الطلبة وساءت الامتحانات فخرّج علماء يشكو الناس منهم بدلا من أن يهتدوا بهديهم .

ــ هل تنظرون إلى علماء الأزهر كأنه جامعة شرقية تتخصص لعلوم الإسلام والعربية أو جامعة عمومية مثل جامعات أوربا

ــ انظر إليه باعتباره جامعة خاصة بنشر الثقافة الإسلامية ولكنى لا أرى من الصواب أن أعارض فى ثقافة الغرب إذا كنا ننتفع بها فى فهم ديننا ولغتنا والتفقه فيهما ، فللغربيين طرق فى دراسة الأدب وطرق الامتحانات والتنظيم والبحث علينا أن نقتبسها كلها

ــ ولكن ماذا يكون موقفكم إذا كانت نتيجة البحث تخالف أوامر الدين

ــ تريد أن تقول إن هناك نظريات أثبتها العلم تخالف ما ينص عليه الدين ، فأنا أقول إن هذه النظريات إن كانت نضجت وصحت عند العلماء وثبتت ومضت عليها المدة الكافية وجب علينا أن نوفق بينها وبين الدين ، فالقرآن مثلا ذكر أن لله وجهاً وأنه يستوى على العرش ، وهذه الأوصاف توهم

أن لله جسما ، ولكن الفقهاء عندما تفقهوا بالفلسفة أولوا هذه الأوصاف بما يوافق التجرد فى ذات الله . وكذلك يجب أن نفعل ، ولكن إذا كانت النظرية غير ناضجة فيجب أن نقف منها موقف الشك فنعرضها على ديننا فإذا وافقته فذاك وإلا فلنرفضها .

— ما هى الإصلاحات التى تنوون فضيلتكم إنفاذها بالأزهر

— نريد أن نقصر الأزهر على الأقسام العالية وأقسام التخصص فقط ، أما القسم الابتدائى والقسم الثانوى فسنؤسس لهما مدرستين بالقاهرة وهذان القسمان موجودان الآن فى بعض مدن الأقاليم مثل الزقازيق وطنطا والإسكندرية ودسوق ودمياط . وسيكون التدريس فى القسم الابتدائى والقسم الثانوى مساوياً لمستوى الكفاءة مع حذف اللغة الأجنبية . وبعد ذلك يدخل الطالب الأزهر وهو ثلاث كليات الشريعة : للقضاء والفقه ، اللغة العربية : وهى تشبه دار العلوم بل المراد منها أن تقوم مقامها ، أصول الدين : حيث يدرس الطالب جميع الأديان ومقابلة كل دين بآخر . . ، وفى كل هذه الكليات الثلاث يدرس الطالب لغات أجنبية ، ولغة شرقية قديمة أو حديثة .

— كنتم فضيلتكم فى السودان فهل درستم موضوع الزنوج

الوثنيين ، وهل من الممكن نشر الإسلام بينهم ، وهل يحتاج نشره إلى مبشرين . . .

ــ الإسلام ينتشر فى أفريقية على أيدى التجار العرب الذين ينقلون إلى الزنوج دينهم وبضائعهم ، ثم إن العبيد الذين اعتنقوه وعادوا إلى أوطانهم قد أخذوا الإسلام معهم ، وهم ينشرونه بين إخوانهم .

وهذه بالطبع طرق غير منظمة ولكنها تثمر بعض الفائدة ، أما الاعتماد على علمائنا فإسراف فى التفاؤل قبل أن نؤهلهم لدراسة التبشير ، وأمامهم أن يسعوا أولا لهداية العامة عندنا إلى فهم حقيقة الدين الذى يسيئون فهمه كثيراً ثم يمكننا أن نفكر فى هداية زنوج أفريقيا ونشر الدين الإسلامى بين الأمم .

* * *

وبهذا الحديث الذى أدلى به الإمام سنة ١٩٢٩ رسم الخطوط الرئيسية الواضحة لأفكاره ، هذه الأفكار التى نفذها فضيلته على أوسع نطاق عند ما عاد إلى الأزهر ١٩٣٥ . . .

ويتصل بهذا الحديث ما ورد فى خطبته فى حفل تكريمه حين رسم مهمة الأزهر كما يراها . . . قال :

« الأزهر هو البيئة التى يدرس فيها الإسلام ، الذى أوجد أمماً من العدم وخلق تحت لوائه مدينة فاضلة ، وكان

له هذا الأثر الضخم فى الأرض ، فهو يوحى بطبعه إلى شيوخه وأبنائه واجبات إنسانية ويشعرهم بفروض صورية ومعنوية ، يعدون قاصرين آثمين أمام الله وأمام الناس إذا هم تهاونوا فى أدائها وأنهم لا يستطيعون أداء الواجب لربهم ودينهم ولمعهدهم وأنفسهم ، إلا إذا فهموا هذا الدين حق الفهم . وأجادوا معرفته ولغته ، وفهموا روح الاجتماع ، واستعانوا بمعارف الماضين ، ومعارف المحدثين فيما تمس الحاجة إليه ، مما هو متصل بالدين وأصوله وفروعه ، وعرفوا بعض اللغات التى تمكنهم من الاتصال بآراء العلماء والاستزادة من العلم ، وتمكنهم من نشر الثقافة الإسلامية فى البلاد التى لا تعرف اللغة العربية .

وللمسلمين فى الأزهر آمال ، من الحق أن ننبه أهله لها :

أولا : تعليم الأمم الإسلامية المتأخرة فى المعارف وهدايتها إلى أصول الدين

ثانياً : إثارة كنوز العلم التى خلفها علماء الدين

ثالثاً : عرض الإسلام على الأمم غير المسلمة عرضاً صحيحاً فى ثوب نقى خال من الغواشى المشوهة لجماله .

رابعاً : العمل على إزالة الفوارق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها . فإن الأمة فى غنى عن هذا التفريق

ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف

ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهدى إلى الحق ، فى أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب قد أحدثتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يضوغه الخيال » .

وقد عمل الإمام لهذه الأغراض ، وبلغ فيها غاية ما أتاح له بقاؤه فى الأزهر . . .

* * *

ولم يقف الإمام عند حدود رسالة الأزهر ، بل جاهر بالدعوة العامة ، وعمل على إصلاح الحياة الاجتماعية للمسلمين ، وحل قضاياهم وقال : « إن لدى الأمة قضايا كثيرة معقدة فى حاجة إلى الدرس والبحث وفى مقدمتها :

أولا : قضية الرجوع إلى كتاب الله وسنّة رسوله وأعمال الراشدين .

ثانياً : حماية الدين من العدوان ، والدعوة إليه كأمر الله .

ثالثاً : قضية التعليم الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب وأخرجته العقول .

رابعاً : قضية نظام الأمم الإسلامية ، وارتباطها بعضها ببعض ، ارتباط تعاون وتناصر .

خامساً : قضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير

أمرهم بحيث تخفف عنهم أعباء الحياة .

سادساً : مقومات الأمم الإسلامية التى يجب أن نحافظ عليها » .

وهذا ولا شك برنامج ضخم ، كان الإمام المراغى قد وطد العزم على تنفيذه . . وقد عمل فيه جهده وهو ليس بالجهد القليل .

٣
أعظم وثيقة فى تاريخ الأزهر

كان لا بد أن يضرب المراغى ضربته ، ويلقى قنبلته ، فتحدث دوياً فى صحن الأزهر وفى محيط المدرسة الجديدة جميعاً.. ، وكان عليه أن يجمع ثوبه ، ويمضى حتى تهدأ الضجة . . ويتكشف الغبار . . وتزول شدة القارعة . .

ولم يكن من طبيعة الأمور ، أن تلقى مذكرة غاية فى القوة والوضوح والصراحة ، قبولا ، من تلك الطوائف الجامدة ، التى أثقلتها أعباء السنين ، وقيدتها إلى ماضيها المألوف ، التى ربما كانت تضيق به . . ولكنها لا تجد السبيل إلى الخلاص منه.

فكان لا بد أن تقف الحكومة فى وجه هذا الإصلاح ، لأنها كانت تعجز عن معرفة مداه .. ، والحكومة صدى للرأى العام ــ أحياناً ــ فى جموده وضعفه وقصوره عن التحليق فى الآفاق البعيدة .

غير أن المراغى ، كان قد حدد موقفه من الأزهر ، ورسم منهاجه فى الإصلاح ، وكشف عن خطته فى البعث

والتجديد ، فى دقة ووضوح .

ومضى الشيخ فاعتكف خمس سنوات . .

وفى خلال هذه الفترة كان الأزهر قد بدأ يفيق ، ثم تفتحت الآذان والعيون فيه على الحقائق والمتاعب ، ثم أخذ يتحسس رويداً رويداً « المفتاح » إلى حياة جديدة .

لم يكن هذا المفتاح غير « المراغى » يتضح هذا من الثورة التى ثارها الأزهر ١٩٣٥ مطالباً بعودة المراغى .

فقد أحس الشباب الجديد أنه لن يستطيع الحياة فى جوانب الأزهر على هذه الصورة بعد أن قطعت الأساليب الحديثة فى التفكير والاجتماع والبحث . . ووسائل الحضارة شوطاً طويلا باعد بين الأزهر وبين الحياة مرحلة أشد طولا وعرضاً مما كان قبلا . .

وهنا صدرت تلك الصيحة المعبرة « إما بالمراغى ، وإما ندع الأزهر للبوم والغربان » وكان ذلك غاية الحق ، لم تكن هذه العبارة الثائرة من كلمات الحماسة الفوارة ، وإنما كانت من صميم اليقين والاعتقاد والتقدير . .

وجاء « المراغى » هذه المرة ، والأمل معقود عليه ، وحق أن ينعقد الأمل بالرجل الذى ملأ صدره حب الأزهر وإصلاحه ، والذى كان فى كل لحظة ، على استعداد لأن

يترك الأزهر ، إذا وقفت العقبات فى سبيل رسالته .

. . وكانت « المذكرة » نبراسه . . . ونهجه .

هذه المذكرة التى وقفت بالأمس أهواء الجهل واصار الجمود وعوامل الاستعمار ضدها وهى كما وصفها الزيات « مقطع الصواب فى إصلاح الأزهر منهجاً وغاية ، وما نظن أحداً ممن تحرى وجوه الإصلاح لهذه الجامعة الإسلامية العظمى ، قد بلغ من ذلك ما بلغ المراغى » .

* * *

وفى هذه الرسالة تتجلى عبقرية الإمام ، وطريقته فى العرض ، وأسلوبه البليغ الذى يتسم بالدقة العجيبة ، كأنما يضع الألفاظ فى مواضع لو رفعت منها ووضع غيرها لما انتظم عقد القول .

وتلك مزية عجيبة يلمحها كل من قرأ للإمام فصلا من فصوله ، أو بحثاً من بحوثه وهى تعطى المؤرخ الباحث ، صورة واضحة للنفسية المشرقة ، صورة الرجل الذى يكشف فى حصافة ودقة ولباقة ، تبيح له أن يقول كل شىء ، دون أن ينبو معه لفظ أو يضيق به أحد . . ولقد علمت من بعض من لهم صلة بالإمام أنه كتب هذه الوثيقة فى جلسة واحدة ، ومجمل ما تضمنته المذكرة :

« يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة وأن تدرس السنّة دراسة جديدة وأن يفهما وفق ما تتطلبه اللغة العربية فقهها وآدابها من المعانى

« يجب أن تهذب العقائد والعبادات وتنقى مما جد فيها وابتدع وتهذب العادات الإسلامية بحيث تتفق والعقل وقواعد الإسلام الصحيحة

« يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة

« يجب أن تدرس الأديان ليقابل ما فيها من عقائد وعبادات وأحكام بما هو موجود فى الدين الإسلامى ليظهر للناس يسره وقدسه وامتيازه عن غيره من موطن الاختلاف

« يجب أن تدرس أصول المذاهب فى العالم قديمها وحديثها

« يجب أن تدرس اللغة العربية دراسة جيدة كما درسها الأسلاف

« يجب أن توجد كتب قيمة فى جميع فروع العلوم الدينية واللغوية على طريقة التأليف الحديثة

« يجب أن يفعل هذا لإعداد رجال الدين ، لأن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة ودينه عام ، ويجب أن يطبق بحيث يلائم العصور المختلفة والأمكنة المختلفة ، وإن لم يفعل

هذا يكون عرضة للنفور منه والابتعاد عنه كما فعلت بعض الأمم الإسلامية وكما حصل فى الأمة المصرية نفسها إذ تركت الفقه الإسلامى لأنها وجدته بحالته التى أوصله إليها العلماء غير ملائم . . »

السنوات التسع
في عمر الأزهر

« إما تحت راية المراغى ، وإما إلى القرى تاركين الأزهر للبوم والغربان[1] »

تلك كانت صيحة ١٩٣٥ . . . ثمار المرحلة الأولى لإمامة المراغى ، لقد أقنعت هذه السنوات الخمس ، كل إنسان فى مصر ، من الأزهر إلى الحكومة إلى رجل الشارع . . بأن الأزهر فى حاجة إلى المراغى . . .

لقد اضطربت الأمور فى الأزهر فى أواخر أيام الشيخ الأحمدى . . واتجهت أنظار رجال الأزهر وشبابه ، إلى شخصية واحدة ، تستطيع أن تعيد الأمور إلى نصابها ، هى شخصية الرجل المعتزل . . . ، فلما عاد المراغى ، عاد بالانتخاب الإجماعى . . ، ولم يعد بالوسائل السياسية أو الحزبية التى تفرض الناس أحياناً على المناصب .

---

(١) كان هذا نداء الشيخ أحمد حسن الباقورى ، وهو قائد ثورة شباب الأزهر ١٩٣٥ .

كان كل أزهرى ينادى بالمراغى العملاق ، ويهفو إلى الروح المراغية القوية .

* * *

حدثنى الأستاذ أبو الوفا المراغى فقال : كان عهد المراغى الأول فى الأزهر قصيراً ولكنه كان خطيراً بآثاره ونتائجه . . . خطيراً فى تاريخ الشيخ فى الأزهر ، وفى تاريخ الأزهر ، وفى نفوس الأزهريين . . فقد كان لآرائه فى المذكرة وفى القانون موقعها فى نفوس طلاب الأزهر وقلة من علمائه . . . كانوا قد تحققوا من حقيقة ما يسمعون عنه ، فاجتمعت قلوبهم عليه والتفوا حوله ، حتى إذا قضت الظروف باستقالته تبعته نفوسهم وظلت تهفو إليه قلوبهم ، وظل أملهم المرجى وإمامهم المنتظر ، وما تركوا فرصة للتعبير عن تعلقهم به حتى انتهزوها بما سمحت الظروف به إذ ذاك ، وكانت ظروفاً قاسية ، وقد لاقوا فى سبيل ذلك عنتاً كبيراً أذنت تلك الأحوال بالتحول ، حتى قام الأزهر على بكرة أبيه ، وفى مظاهر من العنف والشدة . . ومن ورائهم الأمة جميعاً ، يطالبون بعودة الشيخ إلى الأزهر لوصل ما بدأ وينفذ ما صمم .

ولم يجد المسئولون إزاء هذا الإجماع الرائع والتعلق الشديد ،

بدأ من النزول على حكمه فعاد الشيخ إلى الأزهر عودة القائد المظفر »

* * *

وقد أجمعت كل المصادر على أن الفترة بين استقالة الأستاذ المراغى وعودته كانت مضطربة غاية الاضطراب

وإن كان الشيخ المراغى هو الذى أعد قانون إصلاح الأزهر ، إلا أنه قد صدر معدلا فى عهد خلفه الشيخ الظواهرى . . وأطلق عليه قانون سنة ١٩٣٠ .

فلما عاد المراغى إلى الأزهر بدأ بإعادة النظر فى قانون سنة ١٩٣٠ وعدل فيه بما أثبتت التجارب وجوب تعديله ثم أخذ فى أسباب تنفيذه ، وكانت الأسباب قد تهيأت لذلك ، وزال من طريقه كثير من العقبات .

* * *

وبدا الشيخ إصلاحاته . . التى ضمنها مذكرته والتى كان قد تحقق بعض ما تضمنته وهو يقسم القسم العالى بالأزهر إلى كليات ثلاث . . . الشريعة واللغة وأصول الدين ثم بدأ الإمام ينظم البعثات ، وأنشأ مجلة الأزهر ، وقسم الوعظ ، ومعهد القراءات ولجنة الفتوى ، وأنشأ المدينة الأزهرية ، ومكتب البحوث الثقافية ، والمعاهد والوحدة الطبية . . .

وقد نظم لهذه المشروعات القوانين الخاصة بهـا ، والأوضاع التى تدار على أساسها ، وقد جاءت جميعها استجابة للحاجة الماسة إليها ، وتحقيقاً للغرض الذى كانت ترمى إليه فى نقل الأزهر من حال إلى حال . .

لقد هز المراغى ، فى هذه الفترة التى أربت على تسع سنوات ، الأزهر بعنف فأنزل من شرفاته آثار الجمود . . ، لقد كان ثورة على النظم البالية ، لا يقف أمامها شىء . . ينقل بها الأزهر من « الجامع » . . إلى « الجامعة » ومن الماضى إلى المستقبل . ومن مفاخر أعماله — ولا شك — قسم الوعظ والإرشاد الذى يخرج اليوم أولئك الأعلام الذين يذيعون فى الناس كلمة الله فى أسلوب سمح وعبارة جميلة بعيدة عن الغلواء والجمود .

وقد عيب عليه أن يعمل على إرضاء جميع العناصر فى الأزهر ، وتلك ولا شك محمدة الرجل الواسع الأفق ، الرحب الفناء .

وهى السياسة الجامعة الحصيفة ، لرجل حمل على كتفيه العريضتين ، أحجار الأساس فى الجامعة الأزهرية من جديد ، كما لو أن جوهر الصقلى قد انبعث مرة أخرى .

وإن يكن « جوهر » قد بنى الحجر ، فإن المراغى قد بنى الجوهر . . وإن كنا نرى « إصلاح » المراغى للأزهر

اليوم وكأنه مرحلة طبيعية جاءت على يد مصلح ممتاز ، فإننا ولا شك نغض من قدر الرجل وننسى ما لقى من متاعب ومعارضة وخصومة . لم يكن الأمر بهذا اليسر ، الذى ندير به الحديث اليوم . . ، لقى الشيخ من الهجوم العاصف ما لا سبيل إلى تفصيله ، فليس ذلك موعده ، غير أنه احتمل ذلك فى أناة وصبر وخلق . . فلم يجابه خصما ، ولم ينتقم ، ولم يأخذ أخذة القادر بل عفا . . فقد كان يبغى « أثراً » عند الله و « خلوداً » . . . وكان أكبر من أن يرى الصغائر ، أو يقف عندها

وكانت الأيام قد أمدته بالحنكة والتجربة والخبرة . . .

. . ولم تمض سنواته التسع هينة ، بل كانت مجهدة ، كان يضع استقالته فى جيبه ، تجده على استعداد فى أن يعلنها فى أى وقت ، إذا عورض أو وقف إنسان فى طريقه . .

. . وكون المراغى من حوله جبهة قوامها العلم والفهم . . ثم استحصدت هذه الجبهة حتى أصبحت زعامة قوية ضخمة لا يستطيع شىء أن يقف أمامها وهذا الذى وصل إليه المراغى كان قد عجز عنه جمال الدين .

واستطاع المراغى أن يكسب عطف المليك على الأزهر ، وهو ما لم يتحقق للشيخ محمد عبده ، وكان سبباً من أسباب

عجزه عن الإصلاح ، وعقبة من عقبات وصوله إلى أهدافه . .

ومع هذه القدرة على مواجهة الأحداث ، فهو لم ينحن ...
وكانت كرامته عنده فوق كل شيء . . .

لقد نيطت به زعامة الأزهر فى سن الثامنة والأربعين ، وهى سن باكرة بالنسبة لهذا المنصب الضخم ، ولكن شخصية كانت قد استحصدت وقويت ، بعد أن واجه من التجارب والأحداث ، ما أكسبه خبرة بعيدة المدى . . .

وكان الرجل غاية فى النشاط والحيوية وشباب القلب . . ، وكان محباً للأزهر ، مؤمناً بحقه فى النهوض والحياة والتجدد . .

* * *

عمل المراغى على تنظيم الأزهر سواء فيما يتعلق بمستقبل خريجيه أو لعلاقته بالدولة وبالأمة . . .

ومما يرويه الشيخ أبو الوفا المراغى ، أن الإمام وضع فى القانون فقرة صغيرة لم يتنبه إلى خطرها أكثر الناس ولم تظهر قيمتها فى مستقبل خريجى كلياته إلا عند التطبيق ، تلك هى : (أن خريج كلية اللغة والشريعة بالأزهر صالح للتدريس بمدارس الحكومة) فلما خرجت الكليات طالب بعضهم بالتعيين فى مدارس الحكومة ، وهنا ثارت ثائرة مدرسة دار العلوم وأنكروا عليه ذلك فقال للمسؤولين إننى أطالب

بتنفيذ القانون ، فقالوا له وأين ذلك فى القانون ذلك الحق ، فأحالهم على تلك الفقرة . .

وتوترت العلاقة بينه وبين الحكومة إذ ذاك ، وهم بالاستقالة ، لولا أن تدخلت جهات فى الأمر ، وأجيب الشيخ إلى ماطلب .

* * *

ومن أعماله أنه أنقص مخصصات شيخ الأزهر وحول حصة من بعض الوقفيات إلى وزارة الأوقاف حتى أصبح الدخل ٤ آلاف جنية سنوياً بعد أن كان ٨ آلاف . .

وقد استبدل « جراية » الخبز بالنقود ، وقصد بذلك إلى رفع معنوية « النفس » الأزهرية . . وتحويلها من وضع إلى وضع .

* * *

ويصور الإمام كيف انتقل الأزهر من حال إلى حال عند ما احتفل بتكريمه صيف ١٩٣٥ فقال :

« يسهل على قبول هذه المنن كلها واحتمالها إذا أذنتم لى فى صرف هذه الحفاوة البالغة عن شخصى الضعيف واعتبارها موجهة إلى الأزهر الشريف الذى تجلونه جميعاً . .

« دل هذا الاجتماع على أن الأزهر خرج من عزلته التى طال أمدها ونهض يشارك الأمة فى الحياة العامة وملابساتها ليستفيد ويفيد .

« وهذه ظاهرة من ظواهر تغير الاتجاه الفكرى الذى نشأ عن تغير طرائق التعليم فيه ، وعن شعوره بأن فى الحياة معارف غير معارفه القديمة يجب أن تدرس وتعرف ، وطرائق للتعليم يجب أن تحتذى ويهتدى بها .

« ومنذ أربعين سنة اشتد الجدل حول جواز تعليم الحساب والهندسة والتاريخ فى الأزهر وحول فائدة تعليمها لعلماء الدين ، ومنذ أربعين سنة قرأ لنا أحد شيوخنا كتاب الهداية فى الفلسفة فى داره على أن نكتم الأمر لئلا يتهمه الناس ويتهمونا بالزيغ والزندقة

« والآن تدرس فى كلية أصول الدين الفلسفة القديمة والحديثة ، وتدرس الملل والنحل وتقارن الديانات وتعلم لغات أجنبية وشرقية وغربية »

* * *

وقد أثير فى يوم ما ، التفكير فى إنشاء منصب دينى كبير يطلق عليه « شيخ الإسلام » ورشح لهذا المنصب الأستاذ المراغى و . . سارت الفكرة فى طور التنفيذ ، ووضعت الشروط والنظم الخاصة بها ومنها أن يكون من حق شيخ الإسلام ، الإشراف على الأزهر ، وتعيين شيخه ، الذى يعد بمثابة مدير للجامعة الأزهرية . . .

* * *

وعنى الإمام المراغى بتحقيق آمال الإصلاح فى العقيدة ، فكان مما فكر فيه مسألة « الطرق الصوفية » . وقد عمل على اتخاذ بعض المشاريع التى من شأنها رفع مستوى الصوفية ، وسار فى فكرته هذه حتى رشح فعلا أحد كبار جماعة كبار العلماء شيخاً لمشايخ الطرق الصوفية . . .

وكان رضى الله عنه بصدد وضع نظام شامل لهذه الطرق يرفع مستواها ويحفظ لها كرامتها . .

* * *

وبعد : فقد كانت « أيام » الشيخ المراغى فى الأزهر حافلة موفورة الإنتاج ، بعيدة الأثر . . .

وقد روى لى الدكتور صفوت ، وكان طبيبه الخاص ، أنه طلب إليه يوماً أن يسارع إلى الإدارة الأزهرية ، فذهب . . ووجد الشيخ مسجى ، على أحد الأرائك فى حجرة مكتبه . .

وكان قد أصيب بنبحة صدرية ، فلما قلت له : ألا ترى من الخير أن تعود إلى البيت ؟

فقال لى ، لا . . لن أعود الآن ، اذهب واحضر أدواتك وتعال اعمل اللازم .

وكنت أعلم إصراره ، وأن كلمة لا . . منه إنما جاءت

بعد دراسة وتفكير ، وأنه لا يمكن نقضها . .

فأجريت اللازم له طبياً ، وظل الأستاذ فى مكتبه حتى الساعة الثانية ثم عاد إلى داره كالمعتاد .

وقد تقصيت أسباب ذلك فعلمت أنه فى نفس الوقت الذى أصيب فيه الشيخ ، كانت تطبع فى مكتبه أسئلة الامتحانات ، ولهذا رضى الأستاذ أن يظل فى مكتبه بالرغم من تعرضه للخطر ، حتى لا يقع محظور يكون له أثره السيء فى سمعة الأزهر التى كان يضعها فوق كل اعتبار .

* * *

فى السنوات التسع أنجز المراغى للأزهر من مشاريع الإصلاح ما رد به الحياة إلى هذا المعهد المرموق ، لقد أعاد إليه شبابه وبث فيه الضياء من جديد ، فأشرقت جنباته ، وازدهرت معالمه .

نقل المراغى الأزهر من الموت إلى الحياة ، ونقل الدين من التقليد إلى الاجتهاد ، وفتح باب الأمل أمام الأزهريين ، وهيأ الجو لعالمية القرآن . . .

فى خلال هذه السنوات التسع القليلة فى عمر النهضات ، استطاع المراغى أن يعمل كثيراً ، وأن يرى كيف تحققت آماله ، وأنتج غرسه . .

الأزهر الجديد

مضى على وفاة الإمام المراغي سبع سنوات ، هي لا شك فترة قليلة من عمر الزمن ، ولكنها من حساب التاريخ المعاصر الذي نحياه ، ويحياه الأزهر ، تستطيع أن تعطينا القدرة على أن نقول شيئاً ، كنا نتهم فيه بالمغالاة على الأقل ، لو أننا قلناه في حياة الإمام أو إثر وفاته . .

هذا الشيء الذي نريد أن نقوله هو « الفراغ » الواضح الذي يلحظه كل من يتبع تاريخ الحياة المعاصرة أو يشترك فيها بنصيب قليل أو كثير . . .

فقد كان الإمام المراغي ، عملاقاً ضخما ، وقوة كبيرة ، يحسب حسابها في كل تقدير وفي كل شأن . . ولا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها بحال . .

وفي حياة الأمم ، وفي حياة كل فكرة وهيئة ، يظهر الرجل الضخم ، مرة واحدة ، على الأكثر في كل جيل ، فإذا به يشغل الناس ، ويلفت الأنظار ، ويحدث الدوي العنيف . . الذي يقف منه الأنصار والخصوم على السواء وقفة التقدير . .

وهنالك أناس يستطيعون إعلان كلمة الحق ، خالصة ، منصفة . . وهم قليلون . . ، . أما الكثرة الغالبة فقد يسوقها الحسد والحقد ويحول بينها وبين ما تؤمن به فى صميم نفسها . .

إنها تعجز ، لأنها تحس أن الضياء الجديد سيقتل الخفافيش ، وسيقضى على الأقزام الذين اقتعدوا مكانهم فى غفلة الأحداث . . ! وعند ما غابت الأسود . . ، . . . فهى تحاول أن تحافظ على مركزها بإعلان هذه الحرب ، لا أكثر ، وقلما تستطيع أن تمضى إلى نهاية الشوط .

. . وهكذا قوبل الإمام المراغى فى كل مرحلة من مراحل حياته الإصلاحية . . هكذا قوبل عند ما أراد إصلاح التشريع ، وهكذا قوبل عند ما وقف وقفته المشهودة فى قضية الميراث الكبرى . . وهكذا قوبل عندما اختير شيخاً للأزهر وهكذا عندما حاول الإصلاح . . ، وهكذا عندما أراد ترجمة القرآن . .

كان الرجعيون يقفون فى وجهه ، يكتبون ويتحدثون ، ويثيرون الدنيا عليه باسم الدين الذى هم لا يفهمونه حق الفهم . . الدين على الصورة العتيقة البالية التى أورثت الأمم تلك المتاعب والآلام التى ما زال يقاسيها .

باسم الجمود والقصور والعجز عن فهم الإسلام نفسه ، وعن مجاراة الحياة هؤلاء الذين ظن الغربيون أنهم حملة لواء الإسلام ،

وأن ما يعتنقونه هو الإسلام . .

غير أن المراغى كان يعرف سلفاً ـ أنه إنما يعرض نفسه لسهام النقد الجارح ، وإن على من تصدر أعمال العظيمة ، ومن يتصدى للإصلاح أن يحتمل ، وقد ظاهرته قوة إيمانه بفكرته فاستفاد من خصومه ، ومضى فى طريقه ، وعبأ قواه . . . ، وأتاح له الظرف المؤاتى أن يقضى تسع سنوات فى منصبه الكبير كانت فى عمر الأزهر أعظم من سنواته التسعمائة . . .

فقد ظل الأزهر ، على حفاظه على اللغة والدين ، وانياً ، جامداً . . . أغرقته القرون الوسطى فى ظلماتها ودياجيرها ، فلم يستطع إنقاذها . . وغرق هو . . ، ومرت به الهزات العنيفة الضخمة ، التى مرت بالشرق فى تاريخه الحديث ، فلم توقظه ، حتى حمّله بعض المؤرخين جريرة الاستعمار والاحتلال والتحلل .

وكان الأزهر قبل المراغى يوشك أن يفسد رأى العالم الغربى والشرقى على السواء فى أمر الدين ، وفى أمر الإسلام . .

وبعدت الشقة ، واتسعت الهوة ، على أثر عودة رجال البعثات المدنية من الخارج وإنشاء الجامعة المصرية . . وغلبة الثقافة الغربية ، فقد ظن القوم أن الإسلام هو هذا الأزهر ، وأن حملة رسالته هم هؤلاء العلماء . .

ولكن ما كاد المراغى يعتلى منبر الأزهر ويستقر فيه ،

حتى انطوت صفحة الأزهر القديم . . وختمت حياته . . ، وبدا فى الأزهر لون جديد من الحياة ، كان أشبه بالانقلاب العاصف العنيف ، لولا أن ربانه كان لبقاً قوى العارضة ، خبيراً بالناس ، قديراً على إحكام الخطط .

وفى سنوات قليلة ، وقبل أن يغادر المراغى دنيا الأزهر ، تحقق الأمل ، وتمت المعجزة ، واكتمل البعث ، وشاهد الرجل قطوف جهاده ممثلة فى تلك النماذج الجديدة من العلماء الذين درسوا فى الكليات ، وثقفوا بأحدث ألوان الثقافة والفلسفة والعلم ، واستطاعوا أن يخطبوا على المنابر فى صورة جديدة خلابة ، تفتن السامعين ، وتصل إلى نفوس المثقفين فلا ترتد عنها ، وانساب هذا النجاح الجديد فى الحياة المصرية ، فاتصل بأوساطها وصالوناتها ونواديها ومجتمعاتها، فكان خير دعاية ، ولقى أحسن القبول ، وأعجب أولئك المثقفون الذين أعجبتهم حضارة الغرب ، فضاقوا بالدين والأزهر ، أول الأمر ، ثم عادوا فارتضوا تلك النماذج وأحسنوا رأيهم فى الإسلام، وبدأ وايعاودون النظر فى تلك الكنوز الضخمة الموروثة ، وذلك التراث الكبير التى تركه لنا الآباء وكان هذا أعظم الكسب الذى أتيح للشرق حين التقت فيه ثقافته القديمة على صورة مجددة مع ثقافة الغرب الحديثة على صورة مقبولة وكان فضل ذلك راجعاً إلى المراغى

الذى أعاد للأزهر الحياة ، ونفخ فيه الروح ، وأتاح له أن يعيد للإسلام مكانته فى نفوس الناس ..

كان إصلاح الأزهر أمنية فى نفوس أهل الغيرة ، من أبنائه ، وكان محمد عبده أول من رسم تلك الخطط للإصلاح .. فلما قضى ١٩٠٦ أوشك الأزهر أن يستقيم إلى ذلك القدر الضئيل الذى حققه الرجل ، وبقيت المشكلة الكبرى قائمة ، تلك هى مشكلة الإسلام نفسه ، حقيقته ، ومعدنه ، وروحه .. تلك الدعوة التى نادى بها ابن تيمية من قديم ، ثم جددها محمد بن عبد الوهاب ثم حملها محمد عبده ...

لقد انطوت هذه الدعوة ، ولف الأزهر لون من الصوفية غلب على أئمته وأعلامه ، وكانت هذه الصوفية صنيعة ، مسرفة فى الضيق ، فى الوقت الذى بدأت الحياة الأوربية تلف المجتمع فى الشرق بروح فيها كثير من الجرأة والتجديد ، كان على الأزهر أن يوائم بينها وبين رسالته ، أو يقف منها موقف التوجيه حتى لا تطغى على روح الشرق ، أو تفسد قواعده الأصلية .

كان على الأزهر أن يخرج من عزلته إذ ذاك — ليقاوم الطغيان الجارف ، على أسلوبه وبوسائله ، وهى نشر العقيدة الصحيحة وتنقيتها من الخرافات والأوهام ، والعودة بالإسلام إلى

معيته الأول ومنابعه الصحيحة . .

ولكن شيئاً من ذلك لم يقع . . وظل الأزهر يمضى فى الركب لا يستطيع أن يرد الشر ، ولا أن يحفظ نفسه من المزالق .

وفجأة تحول الموقف ، وتغير مجرى الأمور ، عند ما أقبل المراغى فقد التقط فى سرعة أطراف الخيوط الواهية . . وبدأ ينسج من جديد .

وكان جهاده فى سبيل ما اضطلع به من عبء ، شاقاً ، مريراً . . غير أنه صمد له . . ، صمد له بإيمانه القوى بفكرته ، وثقته الكبرى بنفسه . . كانت طبيعته الصعيدية الأصيلة ، تمده بالحيوية والقوة ، وكانت خلاصات الماضى وآثار البيئة العلمية القديمة ، وتعاليم الإمام ، وتلك الطاقة التى ظلت مكبوتة فى نفس الشيخ طوال شبابه ، من القوى العارمة التى أمدته بالحيوية ومكنته من الصمود فى سبيل استخلاص الأزهر . .

كان الأزهر كله ، فى جانب ، وكان هو وحده فى جانب .

ثم استطاع بعد قليل أن يكسب المعركة ، وأن يستخلص النصر . . .

وقد أفاد المراغى ، كما قلنا فى غير موضع بكل الأخطاء والمتاعب والمصاعب والأزمات التى وقع فيها من سبقوه فى تنقية العقيدة أو إصلاح الأزهر فأمكن أن يتفاداها ، ومكنته طبيعته

القوية السمحة — معاً — أن يحقق هدفه فى يسر . . وأن ينفذ إلى غرضه فى حكمة ولباقة . . ، متفادياً كل الصخور والجنادل التى ارتطم بها من سبقوه فى ميدان الإصلاح .

وكان الإمام المراغى خلال تلك المعركة الهائلة — يدارى خصومه ، ويحاول أن يغض الطرف عنهم بل يحاول أن يقربهم إليه ، منكراً ذاته ، فى سبيل فكرته . . وكان فى ذلك موضع العجب من خصومه وأنصاره على السواء . .

ولو أنه لم يفعل ذلك لأقام عقبات جديدة ، كان من شأنها أن تعوق العمل الضخم الذى أخذ نفسه به ، إن لم تفسده .

وسرعان ما أعاد الثقة إلى الأزهر ، وأعاد الثقة إلى العقيدة الإسلامية ، فعرف الناس أن القصور فى الشرق يرجع إلى المسلمين لا إلى الإسلام نفسه وأن جوهر الإسلام ، إن كان قد غشيته غاشية من الجمود ، فإنه قد بدأ ينفض الغبار ، ويكشف عن الحقيقة النقية . .

واستطاع هذا الضياء الجديد الذى أدخل على حياة الأزهر والعقيدة معاً أن يشغل المستشرقين والمفكرين والعلماء فى الشرق والغرب ، فتألق اسم المراغى فى المحافل العلمية الدولية تألقاً منقطع النظير وليس شك أن المراغى خليق بذلك كله ، جدير بالمكانة التى أتيح له أن يصل إليها ، وأنه ليس من التزيد أن يذكر

المراغى حين يذكر محمد عبده بل أن يذكر على أنه هو الذى استطاع أن يصير تلك الخطوط التى رسمها محمد عبده على الورق ، حقائق واقعة . .

وإنه إذا كان لمحمد عبده فضل التفكير وإعداد الخطط فان للمراغى ، فضل التنفيذ ، وهو أشد خطراً وأبعد أثراً .

على أننا لا ننسى أن للمراغى بالرغم من ترسمه طريق الإمام محمد عبده ، كان يحتفظ بذاتيته الخاصة ، على أساس أنه كان يؤمن بالفكرة إيمان أستاذه بها .

وسرعان ما ربط المراغى الأزهر الجديد بالقافلة العالمية — إن صح إطلاق مثل هذا التعبير — فارسل البعوث إلى أوربا. ومثل الأزهر فى المؤتمرات المختلفة التى عقدت للاخاء الإنسانى والترابط العالمى . . ومن ثم تطلع إليه الشرق فى الحادثات والملمات وكان علماء الشرق وزعماؤه ورجاله يلجأون إليه يسألونه الرأى والتوجيه.

* * *

يصف الإمام المراغى حالة الأزهر قبل عهده « إنهم استكانوا فى القرون الأخيرة إلى الراحة ، وظنوا أنه لا مطمع لهم فى الاجتهاد فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا توجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة ، وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة ، وطرق البحث

الحديث ، وجهلوا ما جد فى الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الدينى الذين خصصوا أنفسهم له وأصبح الإسلام بلا حملة ولا دعاة بالمعنى الذى يتطلبه الدين » .

ثم يدافع عن الأزهر الجديد فيقول :

« من الناس من يقولون : إن الأزهر القديم كان متمسكاً بدينه أكثر من الأزهر الجديد وأنا أقول لهؤلاء لا . فالأزهر الحديث متمسك بدينه أكثر من الأزهر القديم . كل المفاسد الموجودة الآن ليس للأزهر الحديث شأن فيها إلا أنه يتطلب إزالتها فقد نظم البغاء وليس للازهر الحديث أثر فيه ، وأبيح الخمر فى البلاد وليس للأزهر الحديث شأن فيها ، ووجدت البدع فى الموالد والأسواق والقبور ، وليس للأزهر الحديد دخل فى وجودها .

« . . كل هذا وجد فى عهد الأزهر القديم ولم يرفع صوته مطالباً إزالة هذه المنكرات التى استقرت فى البلاد ، ثم إن الأزهر الحديث لامس الحياة العملية ولم يكن للأزهر القديم شأن فيها .

« . . لقد كان الأزهر يحتضر منذ سنوات ففى سنة ١٩٢٨ أرادت وزارة الأوقاف أن تنشىء مدرسة للوعظ والإرشاد ووضعت فى ميزانيتها مبلغاً من المال لإنشاء هذه المدرسة ، وفى ذلك التاريخ

كانت هناك مدرسة للغة العربية ومدرسة للقضاء الشرعى فلو أن مدرسة الوعظ كانت أنشئت فى وزارة الأوقاف لكان علماء الأزهر الآن بين جدران الأزهر كأنهم من الآثار القديمة التى يجيء السائحون للنظر إليها ولا صلة لهم بالحياة العامة فى بلادهم.

« . . ولكن الأزهر الحديث استطاع أن يتصل بالعالم ، وأن ينفرد بشئون القضاء والوعظ والإرشاد .

« كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة فى عبارات الكتب ، وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به فى العلم ، وكان يوجد منهم من يستطيع أن يحاضر فى موضوع عملى ، ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم .

« ولكن الأزهر الحديث احتفظ من تلك الطرق بما يجب أن يحتفظ به دائماً وأضاف إلى ذلك أنه استطاع أن يحصل العلم تحصيلا حقيقياً ، وأن يتصل بالبيئات العلمية الأخرى ويجاريها

« متذ ثلاثين سنة كنت مفتشاً فى وزارة الأوقاف وقد فكرنا فى ذلك الوقت فى إيجاد خطب للمساجد أحسن من تلك الخطب المطبوعة التى كانت تتلى دائماً للناس ولا تتغير وأعلنا عن ذلك فجاءنا ٥٠٠ خطبة لم نستطع أن ننتقى منها واحدة نقول إنها صالحة .

« . . أما الآن فقد وجد فى الأزهر خطباء ووعاظ ومرشدون

يمكنهم أن يرتجلوا الخطب وأن يكتبوها .

* * *

ثم يتجه الشيخ بعد هذا العرض التاريخى القوى إلى الأزهريين فيشرح لهم مهمتهم حيث يقول طيب الله ثراه .

« إن للناس فيكم أيها الأزهريون آمالا فى مصر وفى غير مصر ، والحياة الإسلامية تنتعش فى هذا الوقت فى الأمة المصرية وهذا الانتعاش يحتاج إلى عناية ورقابة وتدبر وتبصر .

« إن الذى يجب عليكم هو أن تفهموا دينكم حق الفهم ، وأن تعرضوه على الناس عرضاً صحيحاً ، وأن لا تبقوا فيه تلك الإضافات التى أضيفت إليه وكرهت بعض الناس فيه .

« جردوا دينكم من كل ما غشيه ، وخذوه من الينابيع الصحيحة ، خذوه من الكتاب والسنة وآراء السلف الصالح من الأئمة واتركوا بعد ذلك ما جد وما عرض .

* * *

وكانت إحدى الصحف قد سألته عن « الجهود » التى يبذلها الأزهر لتوثيق صلة الأزهريين بالحياة العامة فقال :

إن خطط الدراسة فى الأزهر ومناهجه ، جعلت الأزهرى الحديث أكثر صلة بالناس وبالمتعلمين على الطريق المدنى ، من الأزهر القديم .

وقد اتصل الأزهر بالأمة عن طريق الوعظ والإرشاد اتصالا لا بأس به ، ومن المنتظر أن تجنى الأمة ثمار هذا الاتصال ، وثمار التعليم الجديد ، كل شيء فى هذه الحياة لا تجنى ثمرته فوراً » .

* * *

وبعد فقد صنع المراغى الأزهر الجديد بيديه . . . ويكفى أن يقال عنه إنه أنشأ كليات التخصص ، وأصلح المناهج ، وقضى على فوضى التدريس ، وشجع البعثات الأزهرية ، وجعل الأزهر جامعة ، ونقل الأزهر إلى خضم الحياة بعد أن كان يعيش فى برج غير عاجى . !

الإمام المجتهد

تستطيع أن تعزو كل ما أصاب العالم الإسلامى فى الشرق من نكبات واستعمار وتغريب ، إقفال باب الاجتهاد . . ، وإيثار التقليد والمضى فيه .

وأول من فتح باب الاجتهاد « محمد بن عبد الوهاب » . . ثم جاء « جمال الدين الأفغانى » فدعا إلى ذلك بصفة عملية ، ومضى فى الطريق « الشيخ محمد عبده » .

. . ثم جاء الإمام « المراغى » ، فعمل فى هذا الميدان على أوسع نطاق . . بصورة لفتت النظر .

* * *

تلقى الأستاذ المراغى فى الأزهر ، كما تلقى الأزهريون ، وقاسى ما قاسوا من متاعب الشروح والحواشى والهوامش والتقارير ، ولم يقف الأمر به عند هذا الحد ، بل اعتمد على مجهوده الخاص فدرس كثيراً من الكتب ، ووسع اطلاعه ، وقرأ علوم الغربيين وثقافتهم إذ اختصر مدة الدراسة الأزهرية فى عشر سنين .

وتولى القضاء فى سن باكرة على غير ما جرت به العادة إذ ذاك وكان قد أشرب روح العدالة والإصرار على الحق من بيئته الصعيدية فقد كانت دارهم فى الصعيد — على حد تعبير محمد كرد على — مفتوحة لحل مشكلات الناس وفض خصوماتهم وكان والده أستاذه الذى أورثه خير صفات العدل بين الناس.

ومنذ عمل فى القضاء، درس الأحوال الشخصية، وعمل تقريراً ضافياً فيها.. صدر على أساسه القانون المصرى الخاص بها، وهو فى هذا التقرير لم يتقيد بالمذاهب الأربع ولم يقف عندها، وإصلاحه لقوانين الأحوال الشخصية من أبرز أعمال الاجتهاد التى وضعت حداً حاسماً للحياة الاجتماعية المنزلية.. وكان باب الطلاق من قبل مفتوحاً على مصراعيه..

وكان هدف حياة المراغى ما رسمه له الشيخ محمد عبده عند ما سافر إلى السودان أول مرة ١٩٠٤ حيث قال له:

« العلم هو ما ينفعك وينفع الناس »

ومن ثم قامت فتاواه فى المعضلات على أساس تقريب الناس من الشرع والتوفيق بين الدين والمدنية فقد كان الرجل يفهم الدين فهماً جديداً مشرقاً، وقد أهلته ثقافته الموفورة على الخروج من الحلقات الضيقة التى وقف إزاءها رجال الأزهر سنوات طوالا وهو حنفى المذهب، ولكنه كالمجتهدين المصلحين

المجددين ، الذين سبقوه يأخذ من مذاهب الأخرى ، ويستنبط من سنة الرسول الكريم نفسه ، ما يناسب العصر والمصلحة .

ومثله فى ذلك مثل أبى حنيفة ، الذى أخذ من الرسول ومن صحابته فلما جاء ذكر التابعين قال « إنما أنا مثلهم . . »

ومضى المراغى فى طريقه ففتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ولم يلبث أن طالب بإلغاء التعصب المذهبى .

وكان نداءه هذا غاية فى القوة ، وغاية فى الحماسة . . فهز به الدنيا كما هزها من قبل بإصلاح الأزهر ، وكما هزها من بعد بترجمة القرآن .

دعا الإمام المراغى إلى توحيد المذاهب وهاجم الأهواء التى جعلت الأمة شيعاً وأحزاباً فى الأصول والفروع ، ونتج عنها هذا التفرق .

« يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية ، أو تضييق شقة الخلاف بينها ، فإن الأمة فى محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق .

« ومعروف لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب هذا الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبى يهدى إلى الحق فى أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أخذتها السياسة فى القرون الماضية لمناصرتها ، فخلقت فى الناس تعصباً

يساير التعصب السياسى ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال ، وما افتراه أهلها وهذه المذاهب فرقت الأمة التى وحدها القرآن الكريم ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال فى فروع الفقه إن ولد الشافعى كفء لبنت الحنفى ، ومثل ما يرى فى المساجد من تعدد صلاة الجماعة وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف فى التوسل والوسيلة ، وعذبات العمائم ، وطول اللحى ، حتى أن بعض الطوائف لا تستحى اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين ، وتسعى لإنشاء مساجد خاصة » .

ومضى الإمام يرسم الخطة الصالحة لهذا الاتجاه الجديد فقال :

« يجب أن يدرس الفقه دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة باصولها فى الأدلة ، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها فى الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها ، والنظر فى الأحكام الاجتهادية بجعلها ملائمة للعصور والأمكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء » .

وفى هذا المعنى ما وجهه الأستاذ المراغى إلى العلماء فى إحدى خطبه .

« نصيحة أقدمها للعلماء — هى احترام حرية الرأى والتحرج من الاتهام بالزندقة والكفر . . ولا أطالب بشىء يعد بدعة ، ولا أحدث فى الدين حدثاً بهذه النصيحة فهى موافقة للقواعد التى وضعها سلف الأمة رضى الله عنهم وتروها مبسوطة واضحة فى كتب الأصول وفى جميع كتب الإمام الغزالى »

* * *

وهكذا قضى الإمام المراغى صراحة على التقليد ، وأنقذ الأزهر والإسلام من تلك المحنة القاسية التى وصمت الشرق الإسلامى دهراً ، والتى اعتبرها كثير من أهل الفكر مصدر الجمود والرجعية التى مكنت الغربيين من بلاد المسلمين .

ولم يقف الشيخ عند هذه الصيحة المدوية ، وإنما أتبعها العمل ، فخلصت فتاواه من القيود التى وضعها أهل كل مذهب ومنح نفسه — وهو المجتهد الذى استوفى شروط الاجتهاد والإمامة — أن يأخذ من معين السنة نفسها . . وأن يستقى ينابيع الشريعة ذاتها « ولم يغفل — كما يقول كرد على — ما بعث به أصحاب المذاهب الجماعية من الآراء والأحكام وما تشدد فيما رخص فيه الشرع ، ودعا إلى العمل بجوهر الدين من دون ما تزمت ولا تضييق »

وكان لقنبلته الثانية هذه أثرها البعيد .

إنها هزت ذلك البناء المتداعى ، وصدعته . . البناء القديم ، وفتحت عيون المستشرقين والمجددين ، على صورة جديدة من الحيوية فى الإسلام .

ومضى الشيخ يثبت قواعد الدعوة الجديدة ويهيىء لها وسائل الاستقرار والثبات فكتب رضى الله عنه فى رمضان عام ١٣٦٣ — قبل العام الأخير من حياته الضخمة الزاخرة . . .

كتب فى الأهرام تحت عنوان « مرحلة من الحياة تفضت»

يقول « هناك أمور يجب أن يترفق الفقهاء فيها بالناس ، وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الإسلام ، ولا يوقعونهم فى الحرج ، وعندى أن من يفطر بعذر ويصرح بذلك أطهر من يفطر بغير عذر ، أو بعذر ، ويظهر أمام الناس بالتقوى يرائى الناس ولا يخشى الله .

والترخص فى المرض ، أو الترخص للمشقة ، فى العمل ، يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء يبينون الحكم ، وهو أباح الفطر للمريض ، ومن لا يقدر على الصوم ، أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه »

وهكذا استطاع المراغى أن يعلن رأيه فى صراحة وجلاء فى أمور كان من المتعذر قبله الحديث فيها ، ولم يكن لغيره أن يصل ما وصل إليه . بل إن المراغى كان أبعد من ذلك أثراً . .

وحديثه فى لجنة الأحوال الشخصية عند بحث مسائل الهبة والوصية — وقد أوردناه فى مكان آخر — يدل على مدى ما وصلت إليه ثقافة المراغى من عمق واستيعاب ، وهو دليل أكيد على إيمان الرجل بالاجتهاد والإصلاح والاستجابة للبيئة ومطالب الزمن .

كان المراغى يؤمن بأنه لاصلاح للشرق ، إلا بالعودة إلى الدين ، كما أنه لا صلاح للأنسانية كلها إلا بالعودة إلى الروحية.

* * *

وفيما يتصل بهذا الاتجاه تلك المحادثات التى دارت فى القاهرة (١١ فبراير ١٩٣٨) بين الإمام المراغى وسمو الأمير أغاخان وتناولت حالة المسلمين الدينية والاجتماعية فى العالم . . وكانت ترمى إلى تكوين هيئة تعهد لبحث المسائل الدينية والاجتماعية الخاصة بالمسلمين على أن يكون من أهم مباحثها :

أولا : توكيد روابط الصداقة بين المسلمين فى كافة أنحاء الأرض .

ثانياً : إيجاد تضامن بين الهيئات التعليمية فى البلاد الإسلامية يكون من ورائه نشر التعليم على وجه العموم ، ونشر الثقافة الإسلامية على وجه الخصوص .

ثالثاً : العمل على تبسيط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه .

رابعاً : محاولة التوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم .

وكذلك كان المراغى يؤمن بالإصلاح وتوحيد المذاهب ويدعو إلى الاجتهاد ويحاول إزالة الفوارق والخلافات بين المسلمين حتى يأخذ الدين صفة العالمية الخالصة .

عالمية القرآن

... هز المراغى الأزهر ، والعالم الإسلامى ، والشرق بأحداث ثلاثة :

* مذكرته الخالدة في الإصلاح
* فتح باب الاجتهاد فى الفقه
* حوار ترجمة القرآن

وفى كل واحدة من الأعمال الثلاثة الضخمة ، كان « المراغى » هو الرجل الذى يعاديه الألوف ويجاريه الألوف ، وكان هو الفارس المحلى الذى يقف فى وجه العدوان .. مرفوع الهامة موفور الكرامة .

وليس فى أعمال المراغى أبلغ من (ترجمة القرآن) عملا .. خالداً ، سيذكره له التاريخ على عظمة أعماله الأخرى

كان الشيخ المراغى يحب القرآن حباً عميقاً ، وكان يترجم عن هذا الحب على طريقة الأكفاء .. ، فقد كان يصرف طاقة حبه للقرآن ، إلى إعلانه فى الناس وإذاعته فى العالمين ، تحقيقاً لرسالة الإسلام .

وكان الإمام يعلم أن المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية يجهدون فى فهم القرآن ، ولا يصلون إلا بالفاتحة ... وحدها ، وكان حفياً بأن يتيح لهم فرصة إطالة الصلاة والمناجاة .

ولقد أعلن الرجل رأيه مدوياً ، فقوبل بعاصفة من المعارضة الضخمة ، واتهم بأنه لم يرد الإسلام بهذه الدعوة ، ولكن الأحداث والوقائع كذبت هؤلاء وأثبتت أنهم هم الذين لم يريدوا وجه الله . .

كان المراغى يؤمن بعالمية القرآن ، وكان يرى من الضرورى إبلاغه إلى الناس على الوجه الذى يمكن تيسره لهم ، ولم يكن من المستطاع أن نعلمهم العربية حتى يقرأوه بها ، فكان لا بد من أن يعلن لهم بلغاتهم .

وكان جرياً على سنته فى رفع شأن الإسلام ، يريد أن يضع أمام المستشرقين والمفكرين والباحثين فى الغرب صورة صادقة كاملة ، أو قريبة من الكمال من هذا الكتاب ، حتى يلتفتوا إلى ما حوى من دراسات وتشريعات . . وكان يؤمن أن من شأن هذه الدراسة أن ترفع قدر الإسلام فى نظرهم ، وأن تعدل آرائهم فى الشرق ، وتضع الأمور فى نصابها بالنسبة للدين .

وكان المراغى — إلى هذا — يؤمن بأنه لا صلاح لهذه الإنسانية إلا بهذا القرآن ، وإن مشاكل العالم كلها ، تجد حلها

فيه . . وأن الدنيا المتردية فى المذابح ، والمتاعب ، والأزمات ، تستطيع أن تواجه النور عند ما توضع يدها بين صورة واضحة من القرآن .

بدأ فضيلته رضى الله عنه هذا العمل الجليل سنة ١٩٣٢ ، وأخذت مجلة الأزهر تنشر كل شهر فصولا ضافية مترجمة من الآيات الكريمة . . بينما أخذت مختلف الصحف تنشر فصولا فى نقد هذا العمل ، فقد ظن بعض الجامدين إنما أريد به إضاعة إعجاز القرآن . . ، وثار لذلك جدل طويل اشترك فيه كثير من العلماء ، غير أن الفتوى التى وقعها ١٤ عضواً من هيئة كبار العلماء بالموافقة على جواز ترجمة معانى القرآن قطعت على الرجعيين خط الرجعة ، ووضعتهم أمام الأمر الواقع ، وهكذا انتصر الأزهر الجديد فى هذه المعركة الثالثة . .

وكان المفروض أن تجرى ترجمة القرآن إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية وعارض الشيخ الظواهرى ، هذا المشروع ، جرياً على اتجاهه الدينى المشبع بالروح الصوفى وقد أعلن الإمام المراغى بأنه إنما يريد بهذه الترجمة الرسمية إلى مناهضة الترجمات الغير الرسمية ووافق مجلس الوزراء على المشروع واعتمد له ٢٠ ألفاً من الجنيهات .

* * *

وقد أذاع الإمام المراغى بحثاً يحدد به وجهة نظره فى هذا الموضوع استشهد فيه بفتوى الإمام أبى إسحق الشاطبى الذى ضمنه كتابه « المواقعات » حيث قال : إن أهل الإسلام أجمعوا على جوار تفسيره للعامة ، ومضى يقول « وهذا إجماع منهم على جوار ترجمته . . . ، وبيان هذا أن التفسير قد يطول وقد يقصر ، وهو تعبير بألفاظ تبين معانى القرآن وأغراضه ، وليست هى ألفاظ القرآن ، وقد يكون المفسر مخطئاً فى بيان معانى المفردات ، وقد يكون مخطئاً فى بيان المعانى التى يدل عليها التركيب . . ، ولا يمكن أن يدعى العصمة لمفسر أيا كان ، ومع هذا فقد احتمل جواز هذا الخطأ . . فيجب أن يحتمل جواز الخطأ فى الترجمة ، كما احتمل فى التفسير ، إذ لا فرق بير المفسر والمترجم إلا أن هذا يضع فى بيانه معنى اللفظ ، لفظاً عربياً ، وذاك يضع لفظاً أعجمياً .

ثم يمضى فضيلة الأستاذ فيقول :

« . . أما إمكان الترجمة فهو أمر بين يدركه من لا يعرف اللغة العربية .

وقد تستطيع اللغة المنقول إليها أن تؤدى بعض الخصائص فى اللغة العربية وتنهض لأداء الدلالات التابعة ، يعرف هذا من عانى نقل العلوم والفنون من لغة إلى أخرى ، ومن يدرك فقه اللغات

وخواص استعمالها .

« . . ولكن من المحال أن تنهض لغة من اللغات لأداء كل ما فى اللغة العربية من خصائص فقد يكون المفرد فى لغة العرب له فوق دلالته الوصفية ، دلالة فى حادثة خاصة

« . . كذلك لغة العرب لا تنهض لأداء الدلالات التابعة كلها فى أية لغة من اللغات الراقية ، وكلما كانت القطعة العربية التى يراد نقلها أكثر فى حمل الدلالات التابعة من غيرها ، كان نقل تلك الدلالات أكثر تفسيراً ، وهكذا يزيد الأمر صعوبة حتى يصل إلى الاستحالة المطلقة فى نقل الآيات المعجزة فى القرآن الكريم ، فإن نقل الخصائص التى بها كان الإعجاز يقتضى أن الترجمة تحمل خصائص الإعجاز أيضاً فى اللغة المنقول إليها . والإعجاز فى أى لغة من اللغات ليس فى استطاعة البشر .

« وإذا كان الأمر هكذا كان ادعاء أن القرآن الكريم كله لا يمكن ترجمته لأنه معجز ادعاء خاطئاً ، بل الحق أن يقال إنه يمكن ترجمته كل من ناحية الدلالات الأصلية ، وتستحيل ترجمته من ناحية الدلالات التابعة »

وهكذا يخلص الإمام إلى غاية بعد هذا الإقناع الذى يدل على سعة الأفق ، وقوة العارضة ، وعظم القدرة على التحليل والبحث . .

ثم يواجه خصومه ، ومعارضيه فى قوة فيقول .

« نحن نعترف بأن الترجمة الحرفية متعذرة ، فى كل القرآن وممكنة فى آيات كثيرة ، أوفى أكثر آيات القرآن ، ونعترف بأن الترجمة المعنوية قد يتغير بها المعنى المراد لله سبحانه وتعالى ، لأنها موقوفة على الفهم أولا ، وبعد الفهم ينقل المعنى إلى اللغة الأخرى « . . ولكن الحنفية فى هذا أجازوا الترجمة الحرفية فيما يمكن أن يترجم حرفياً ، ولم يجيزوا الصلاة بغيرها ، وأجازوا الترجمة المعنوية ، ولكنهم لم يجيزوا الصلاة بها ، ولو أنهم كانوا يمنعون الترجمة المعنوية لقالوا إنها لا تجوز الصلاة بها ، لأنها غير جائزة ، ولكنهم قالوا :

لا تجوز الصلاة بها لأنه لا يتعين أنها معنى كلام الله »

ثم يتحدث الإمام عن واجبنا تجاه الأمم الإسلامية الأعجمية فيقول : « أما تعريب الأمم الإسلامية الأعجمية ، فهو أمل حلو ، ولكن إلى أن يتحقق هذا الأمل ، ماذا تفعل الأمم الأعجمية وهل الأفضل لها أن تبقى كما هى قانعة بقراءة الفاتحة فى الصلاة ثم هى بعد هذا لا تستطيع النظر فى ألفاظ القرآن العربية ولا النظر فى معانيه مترجمة ، أو الأفضل أن ننقل إليها معانى القرآن ، وينقل ما يمكن نقله بالترجمة الحرفية ، لتستطيع إطالة الصلاة والمناجاة بقراءة الترجمة الحرفية وتستطيع

النظر والفهم والتدبر فى هذه المعانى .

« ثم هل الأفضل أن يبقى القرآن محجوباً عن الأمم الراقية المسيحية ، أم الأفضل أن ينقل إليها نقلا صحيحاً ليبحث العلماء نظمه الاجتماعية وما فيه من توحيد وتبريز ومكارم أخلاق »

. . . ثم يصل الإمام إلى الحقيقة الموجعة ، التى أحسها وعمل فى سبيل تجنبها حيث يقول :

« وهذه المسألة تدل على ظاهرة غريبة فى الفقه ، فكلما ذهبت بعيداً تطلب الأولين من الفقهاء وأقوالهم تجد روح التسامح بادياً فى الصور ، وروح النظر فى المعانى وثاباً طامحاً ، وكلما دنوت من عصرنا الذى نعيش فيه وجدت الأمر على العكس » .

وصدق الإمام المراغى . . وأبان عن حجج مضيئة كالشمس عن جواز ترجمة معانى القرآن ، لا يجادل فيها إلا مغرض ، أو رجعى ، أو من لا يريد وجه الله وفى نفس الوقت الذى كان هذا الرجل ينافح عن القرآن مخلصاً صادقاً فى سبيل إعلانه وإذاعته ، ويتهم بالتفريط فيه ، كان يعارض اتجاهاً ظهر إذ ذاك فى الربط بين ظواهر العلم وبين القرآن .

وقد وقف المراغى يقاوم هذا الاتجاه ، وليس أدل من هذا غيرة منه على كتاب الله ، استمع إليه « كلما حدثت فى العالم

فكرة طريقة اجتهدوا فى تلمسها من القرآن ، ونرجو إن استطاعوا الاهتداء إلى إشارة بعيدة إليها . . يفعلون هذا فى جميع النظريات المرتبطة بالكون وأسراره ، وقواعد الاجتماع والسياسة ، « . .ولكن من حقهم أن يفهموا أن المعارف البشرية غير مستقرة ، وأنها تتغير وتتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها ، أو تناقضها ، وأنه ليس من الحكمة أن تربط هذه المعارف غير القارة بكتاب الله الثابت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

« . . ومن الخير أن ندع كتاب الله يقرر لنا أحكام التشريع الوثنية ويجتثها من أصولها ، ويرفع العقل البشرى إلى المستوى اللائق به ، ويأخذ بيد الإنسان إلى المقام الأسمى اللائق ، بخلافته فى الأرض ، ويبين لنا العبرة والعظة بأحوال الماضين ، ويغرس فى نفوسنا الأخلاق الفاضلة ويفتح أمامنا أبواب العلم والهداية . .

« نعم ، إن فى كتاب الله آيات لا تفهم حق الفهم ، إلا بمعارف فلكية وطبيعية ، ولكن تلك لم تسق لتقرير تلك المعارف ، وإنما نزلت للهداية والعبرة ، فليس القرآن الكريم ، كتاب حساب وفلك وطبيعة ، وإنما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة الإنسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض »

وفى هذه العبارات التى اخترناها من كلام « المراغى » تبدو غيرته القوية ونفاحه البليغ عن كتاب الله .

المراغى السياسى

لم تنفصل « السياسة » عن « الدين » فى تاريخ الإسلام ، إلا فى عهود الضعف والمذلة . . ولذلك كان حتما أن يكون « المراغى » سياسياً .

والسياسة التى نعنيها هنا هى التوجيه الواسع للحياة العامة . . وبهذا المعنى اشترك المراغى فى السياسة ، وقد جاء على نفس الصورة التى كان عليه الأئمة فى العصور السالفة .

كان المراغى فى هذا الدور أشبه بالمعز بن عبد السلام ، والنووى ، وابن تيمية . . وغيرهم من العلماء الذين كانوا يقدمون الرأى الصالح لأولى الأمر فى وقت الحاجة إليه . .

يقول الأستاذ مرتضى المراغى باشا رداً على ما تردد من أن الإمام المراغى يشتغل بالسياسة » إن الإسلام دين وسياسة ، ولا رهبانية فى الإسلام ، وأن عمله فى السياسة ليس عملا حزبياً ، بل عملا عاماً بالمعنى الذى تؤديه كلمة السياسة عند رجال الاجتماع من تدبير شئون لأمة وشئون الدين .

وحدثني أبو الوفا المراغي قال « اشتغل الأستاذ المراغي بالسياسة عملا بدينه ، فالإسلام لا يفرق بين الدين والدنيا ، وإنما هو نظام شامل لهما جامع بينهما .

اشتغل بالسياسة من وراء وراء ، حرصاً على كرامة منصب مشيخة الأزهر بل مشيخة الإسلام ، كما كان يعتبرها البعض — وهو اعتبار جدير بالنظر .

وقد استهل الإمام المراغي حياته العملية بعمل سياسي ، وهو موقفه من ثورة ١٩١٩ كما روينا ... فلما راجعه الإنجليز قال لهم « إني[١] فعلت ذلك براً بوطني وتوجيهاً لشعور المصريين بالسودان وجهة الخير والمصلحة واتقيت بذلك شروراً كانت لابد واقعة لو لم أنح هو النحو . . وكان ما فعلت هو المنفس السلمي الوحيد » .

ويقول الأستاذ محمود السيد « كان الشيخ المراغي يعتقد أن رجل الدين يتعين عليه أن يشتغل بالسياسة ، وكثيراً ما برر رأيه في أن الإسلام دين ودولة . . فقد كان يرى ضرورة اشتغال رجل الدين بالسياسة ، ولكن لا على

---

(١) من مذكرات الأستاذ أبو الوفا المراغي .

أنها حزبية ولا طائفية ، بل للإرشاد إلى ما فيه الخير ولرد المخطىء عن خطئه ، وإعلان تقصير المقصر ، ولو كان من الرجال المسئولين الذين يتهيب الناس تصرفاتهم .

وقد كان على هذا الأساس يبدى الجرأة فى إعلان الرأى من غير أن يثير عليه الخصومات وهدفه : أن ينصح ويتقى الله ، وينقد ولا يخشى إلا الله » .

* * *

ومن المواقف السياسية المعروفة للإمام المراغى ، مهمته التى سافر من أجلها إلى الحجاز ، وكانت لأمور تتعلق بالخلافة ، ولتسوية الخلاف الذى كان قائماً إذ ذاك بين ملكين مسلمين . . كانا يتنازعان الحجاز . . وقد وفق فى مهمته ، وليس فى إمكاننا الآن الحديث بالتفصيل عن هذه السفارة فى الوقت الحاضر .

* * *

ومن أشهر مواقفه السياسية ، خطبته أثناء الحرب الأخيرة فى مسجد الرفاعى ، التى أعلن فيها موقف مصر فيها وأنها لا مصلحة لها من الاشتراك فى الحرب ، إذ لاناقة فيها ولا جمل .

« ولقد[1] أحدثت هذه الخطبة ضجة هائلة ، وقامت لها الحكومة المصرية وقعدت ، واهتزت لها بريطانيا ، هزاً عنيفاً ، وطلبت إلى الحكومة المصرية بياناً عن هذه الفكرة ، واتصل به رئيس الوزراء وخاطبه فى لهجة تفوح منها رائحة التهديد . . فثارت ثائرته وقال له .

« مثلك يهدد شيخ الأزهر . . وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة ، ولو شئت لرقيت منبر مسجد الحسين ، وأثرت عليك الرأى العام ، ولو فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب » .

* * *

«[2] وقد تعرض الإمام المراغى سنة ١٩٤٤ ــ ١٩٤٥ لحملة قوية من بعض الأحزاب تمثلت فى مقالات طائشة من بعض الصحف حررتها أقلام كبار الأدباء منهم ، بقصد إحراجه وحمله على الاستقالة ، وقد استقال فعلا واعتكف فى منزله تسعة شهور ، ثم ردت إليه ، وعاد ثانياً إلى الأزهر وقد استعدوا عليه السفير البريطانى ، الذى جرى فى تيارهم مخالفاً بذلك التقاليد الإنجليزية . . وقد ظل الشيخ يدافع

---

(١) ، (٢) من مذكرات الأستاذ أبو الوفا المراغى .

عن نفسه وقد تالبت عليه قوة الحكومة والإنجليز حتى هدأت العاصفة وانتصر الشيخ . . » .

* * *

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام ، أن الأستاذ الإمام كان غاية فى اللباقة والقوة — معاً — عندما كانت الأمور تتصل بالبريطانيين .

وكان الإنجليز يفهمون منه هذا ، وقد كتب حاكم السودان — أيام كان الإمام بها — إلى وزارة الخارجية يقول : « إن الشيخ المراغى يعد من دهاة العالم » وكان الرجل على قدر كبير من الإدراك لعقلية الإنجليز ومعرفة الجوانب التى يمكن أن تؤتى منها ، وقد كان جورج لويد يحترم الشيخ احتراماً كبيراً وقد حدث فقال : أن الرجل العظيم الوحيد فى مصر هو الشيخ المراغى ، إنه لا يعرف الإنجليزية جيداً ، وأنا لا أعزف العربية جيداً ، ومع ذلك فعلى كثرة ما تحدثنا معاً ، لم يفت أى واحد منا ، أى شىء من غرض الآخر .

* * *

ومما يروى أن كان أحد السفراء البريطانيين تحدث إليه . . ذات مرة وانتقل الحديث فجأة إلى الصيد والسمك . . قال السفير :

ــ إن السمكة تفسد من رأسها .

ــ الحق أن السمكة تفسد من بطنها .

ــ هذا غير صحيح ، وأنا صياد ، أعرف السمك معرفة تامة فأجابه الشيخ . . . إنك قد تحسن الصيد فى نهر التيمس ولكنك لا تحسن الصيد فى نهر النيل .

* * *

وفيما يتصل بالحديث عن صلة الأستاذ المراغى بالسياسة ما رواه لى الأستاذ عبد الحميد رشوان قال :

فى سنة ١٩١٤ كان الأتراك يحاربون الإنجليز ، وكان الإنجليز فى خوف شديد من الشعور الدينى فى البلاد . . ، ولذلك لجأوا إلى وسائلهم المعروفة ، وهى إغراء الزعماء الدينيين فى العالم الإسلامى بإصدار فتاوى فى تفسير معنى الحديث « الخلافة فى قريش » . . . من شأن هذه الفتوى ، أن تؤيد الرأى بأن الخلافة التركية لا ينطبق عليها هذا الحديث . .

وقد أصدر الإمام المراغى فتواه ــ وقد ضمنها أنه . . ليس مفتى الخلافة فى قريش أن يكون الخليفة قرشياً ، ولكن الضرورى أن يكون الخليفة مسلماً ذا عصبية قوية تستطيع أن تذود عن بلاد المسلمين ، مهما كانت جنسيته ، فمثل تركيا هى أقوى دول الإسلام ، وينطبق عليها هذا

الحديث . . » .

وهكذا لم يصل الإنجليز منه إلى ما يريدون .

* * *

وكان الشيخ المراغى ناصحاً أميناً على قاعدة الحديث الشريف « الدين النصيحة ، قيل لمن يارسول الله قال لله ولرسوله وللمؤمنين » . . .

ورغم ما هو معروف من صداقته لمحمد محمود باشا .. التى ترجع إلى السن والجيل وإلى الرابطة الصعيدية التى كانت تجمعهما . . فلم يمنع ذلك الشيخ المراغى عندما سئل من بعض الجهات . . هل من الخير أن يؤلف الوزارة . . قال إن ذلك ليس من الخير وليس محمد محمود وحزبه موضع تقدير من الشعب . . وأعتقد أن الوفد سينال الأغلبية لو أجريت انتخابات . . .

فلما قيل له — نعرف أنك أعز صديق لمحمد محمود .

فأجاب فى وقاره المعهود : إن شيخ الإسلام لا يكذب .

هذا مثل من نصائحه ، وتوجيهاته . . الصراحة والوضوح ، والتجرد ، هى كلمة الحق يقولها ولا يبالى .

* * *

وقد حدث أن ذهب الخديو عباس لتأدية الصلاة فى

أحد المساجد — وكان الأستاذ المراغى إذ ذاك مفتشاً للمساجد . . فوجد إماماً أعمى ، فغضب ، وقال له : كيف يكون إمام المسجد الذى أصلى فيه أعمى .

وأجاب المراغى : إن الإسلام لا يشترط أن يكون الإمام أعمى أو بصيراً ، وخرج الخديو غاضباً .

فلما وافق الإنجليز على تعيينه قاضياً لقضاة السودان ، ذهب حسين رشدى باشا يعرض اسمه على الخديو فقال له : أنا لا أحب هذا الرجل ، وقص قصة الفقيه الأعمى .

فأجابه رشدى باشا : هذا رجل يشترط أن يكون تعيينه فى هذا المنصب بمرسوم مصرى . . إنه يريد أن يحافظ على حقوق البلاد .

وهنا قال الخديو : «ما دام الأمر كذلك فأنا أوقع المرسوم»

* * *

« وكان[1] المراغى حريصاً كل الحرص على جلال المنصب يصبغ تصرفاته كلها بهذا الاعتبار ، ويهدف إلى هذا الغاية ، وما كان يغضب لشىء غضبه إذ يمس هذا المنصب » .

ومما يروى فى هذا المعنى ، أنه دعى إلى الاحتفال

---

(١) من مذكرات الشيخ أبو الوفا المراغى .

بذكرى وفاة سياسى كبير ، وكانت الأحداث العالمية إذ ذاك يقضى بالمبالغة فى تكريمه ، ولكنه اعتذر عن الحضور فى لباقة الرجل الدينى والرجل السياسى ، وجاء فى الاعتذار أنه يخشى أن يسىء الرأى العام تأويل حضوره إلى هذه الحفلة.

وقصة أخرى ، مجملها أن بطريرك الروس كان قد دعى إلى زيارة مصر ، وقد استقبله الإمام المراغى فى مكتبه بالأزهر ، غير أن شخصية مصرية كبيرة طلبت إلى الشيخ أن يرافقه فى زيارة الأزهر مبالغة فى مجاملته ، فاعتذر الشيخ فى صراحة : وقال إن ما قمت به يكفى فى مجاملته وتكريمه . .

* * *

ومجمل القول فى هذا الموضوع ، إن المراغى كان « سياسياً » ممتازاً يفهم السياسة بمعناها الواسع ، ويجعلها النصيحة لأولى الأمر ، والميزان المعتدل فى جميع الأمور . .

وموقفه من الإنجليز فيما روى عنه يدل على مدى ما كان هذا الرجل يحب وطنه ويعمل على مقاومة الطغيان . . وخير مانختم به هذا الفصل هذه العبارات للاستاذ فكرى أباظه باشا « كان الإمام المراغى شخصية فذة ممتازة ، قوية ، صمدت أمام كل سلطة فى البلد ، حين شاء الإباء الشخصى أن يصير ، وقاومت حين شاءت الكرامة الشخصية أن تقاوم .

. . وارتطم الفقيد ببعض الأزمات العليا ودس له الدساسون لدى الملك العظيم فؤاد ، فآثر أن يتزوى ، وأن يحتجب ، حتى بدت وجهات نظر متألقة ، بقصد المصلحة والخير للأزهر والأزهريين ، فعاد السيف إلى قرابة ، وتربع على كرسى المشيخة ، واستطاع أن يحرر الأزهر تحريراً تاماً من سيطرة القصور والدواوين ، ودعمه باستقلال جامعى لم يوفق إليه شيخ سابق .

وكم اصطدم مع حكومات قوية ، كحكومة الوفد ، فى أكثر من عهد ، ولكن ظلت مكانته فى نفوس الحاكمين ، مكانة الإجلال والاحترام فلم تخدشها الخصومة ، ولم يؤثر عليها كدر العلاقات . . .

وقيل الكثير عن الشيخ من أدوار سياسية لعبها فى أكثر من ظرف وأكثر من جيل ، ولست أعلم بالتفصيل ، كيف كان الفقيد ، ذا صلة وثيقة بالسياسة العليا ، وإنما الذى أعلمه أن أصدقاءه جميعاً من زمن ، كانوا من زعماء الأحزاب ، وأقطاب السياسة فى البلد وكانت صلته الوثيقة بالقصر الملكى ترتكز على ثقة متناهية وحب ، ولعل تلك الصداقة وتلك الصلة بالقصر وبالسياسة من زعماء وأقطاب هى التى جعلت كلمة الشيخ وأترابه ، وبعد نظرة على مقربة من حاجة المسؤولين

إلى الرأى والفتوى ، فاستعانوا بها حيناً بعد حين ، وأعلم جيداً أنه كان حريصاً وشديداً على أن يضع بينه وبين السياسة جداً فلم يكن يحبها لأنه لم يكن يكبر من وسائلها وأساليبها » .

الاعتزاز بالكرامة

مفتاح شخصية المراغى

. . لم يكن ممكناً أن تتاح هذه القدرة لإنسان عادى ، ولم يكن من المعقول أن يكون الرجل الذى غير الأزهر وأنشأه خلقاً آخر ، وفتح باب الاجتهاد . . ودعا إلى ترجمة القرآن ووقف أمام السهام المصوبة ، سهام العلماء الذين كانوا يكتبون فى الصحف ويخطبون فى المنتديات ومعهم اللسان والبيان وقوة العارضة والأتباع . . إنساناً من الأقذاذ القلائل الذين يظهرون فى كل جيل مرة .

. . فما هو مفتاح شخصية ، هذه الشخصية الجبارة . . التى تركت أبعد الأثر فى محيطها ومحيط الإسلام والشرق جميعاً . .

ثم ما هى تلك الصفة التى يمكن أن نضفيها على « الإمام المراغى » أهى البطولة أم العظمة أم الزعامة . .

* * *

لا شك أن إمامنا كان بطلا ، وإن كان الفلاسفة وكتاب التراجم ، قد اختلفوا فى وصف البطولة ، فقد كان المراغى

بطلا على أى صورة من هذه الصور ، أو وصف من هذه الأوصاف .

فإن قيل إن البطولة هى أن يكون البطل مقتحماً لا يخاف ، ولا يهاب ، ولا يخشى فقد كان المراغى كذلك .

وإن كانت البطولة هى الحكمة والعقل ، التى نقدم متى يكون الإقدام عزماً وتحجم متى يكون الإحجام حزماً فقد كان كذلك . .

وإن كان كان البطل هو من يغلب منازليه ويقوى على خصومه بالحجة والبرهان فقد كان المراغى هو ذاك .

وإذا قيل إن البطل هو من يقوى على أهواء النفس ويرد غرائزها فهو لا يعدو نطاق هذا القول .

فهو البطل على أى أوضاع البطولة التى قررها الباحثون ، وهو البطل فى معناها الشامل ، وفى مظاهرها المتعددة . . سواء أكانت قوة العارضة فى الإقناع ، أو سعة الباع فى الإصلاح .

وهو البطل إن كانت البطولة رسم المناهج أو منفذها ، أو الغلبة على النفس والسيطرة عليها .

وإن كانت البطولة هى تغيير مجرى التاريخ ، وتحويل تيار الحوادث فمن ذا الذى ينكر أن المراغى غير صفحة تاريخ

الأزهر ، وحول مجرى الأحداث فى الفكر الإسلامى وحمل المستشرقين والمفكرين فى الشرق والغرب على إعادة النظر فيما قرروه بشأن الشرق والمسلمين .

وإن كانت البطولة هى إنشاء مدرسة جديدة فى الرأى تثبيت الأيام حاجة الناس إليها ، فقد فعل المراغى .

وإن كانت البطولة هى أن تفتح للناس باباً موصداً يلائم بين حاجاتهم وبين قواعد الدين ، ويوافق بين سعادتهم وبين قوانين الحياة فقد فتح المراغى للناس باب الاجتهاد . . وذلك لهم الصعاب فى سبيل سعادتهم . .وإذا كان البطل هو الرجل الذى يضعة الزمن فى المكان المناسب فى الوقت المناسب فقد كان كذلك المَراغى . .

* * *

كان العلماء من قبله ، لا يعملون ، كأنما قد حيل بينهم وبين العمل . . قدر نافذ أو غيب مكتوب ، وكان يجرفهم التيار فيمضون فيه ، وكانوا لا يجهرون بكلمة الحق ، أو كانت كلمة الحق نفسها لا تجد سبيلها إلى ألسنتهم أو نفوسهم ، حتى جاء إمامنا فأعاد مجد العلماء الذى كاد أن يندثر . . أعاد مجد العلماء الذين كانوا يقرعون آذان أصحاب السلطان بكلمة الحق ، أعاد ذكرى العز عبد السلام ،

والدردير ، والنووى . .

قال كلمته التى هزت الدنيا يوم أعلنت الحرب العالمية الثانية :

هذه حرب لاناقة لنا فيها ولا جمل . .

واضطربت بريطانيا وارتجف الاستعمار ، ووقف الشرق كله ينظر إلى الرجل الأعزل الذى لم يخش إلا الله ، والذى أعاد سيرة الأسلاف .

كان إمامنا بطلا ، إذا كانت البطولة هى نقل الجامع الأزهر إلى الجامعة الأزهرية وكان بطلا ، لأنه أشقى نفسه فى سبيل هذه الأمة الأزهرية راغباً فى رفع مستواها . . وأشقى نفسه فى سبيل الأمة الكبرى لأنه أراد أن يخرج لها طائفة من العلماء المستنيرين الخالصين المجردين لكلمة الحق . . كان الأزهر يتردى ، كاد يوشك أن يصل إليه العطب . . ، وكان الخطر قد دهم بالفعل هذا المنار القوى السامق ، لولا جاءت يد « المراغى » فاستنقذته وكان ذلك العمل الضخم فى حاجة إلى جهود جبارة ، ولكن المراغى كان أكثر من رجل ، كان أمة . . ، وكان يثق بنفسه وعزيمته وقوته ، فاندفع يحقق هدفه دون أن يخشى شيئاً ، فلما رأى أن الأمور لا تسير وفق ما يرجو . تنحى واعتصم بعرينه .

.. خمس سنوات ، تبين فيها للأزهر ، أن خلاصه على يد رجل واحد ، فلا بد أن يعود .

.. وعاد الرجل منقضاً كالصاعقة ، لا يرمم البناء المنهار ، وإنما لينشىء بناء جديداً ، ولم يكن الطريق معبداً .. ولم تكن الريح رخاء .. ولم يكن البحر هادئاً ..

كانت هناك الأشواك ، والعواصف ، والصخور ..

ولكن البطولة منحة ربانية نادرة ، تمنح ولا تكتسب .. وهى لا تعبأ بشىء فى سبيل الحق ..

إنها فيض يرسله الحق بين آن وآن ، لينير به طريقها ، ويردها عن غيها ، ويحقق به الخير لها .

إنها كنز مخبوء ، يضعه الله فيمن يشاء .. « الله أعلم حيث يجعل رسالته » لقد ظلت البطولة فى صدر المراغى ، وفى نفسه ، وفى أعصابه .. حتى جاء اليوم ، وأقبلت اللحظة الحاسمة ، الفاصلة ، التى تأذنت لها بالبروز والظهور والإشراق . وبها .. ، تحققت الآمال التى ظلت تتردد كلمات فى الأفواه أو على الورق ..

وبهذه البطولة أصبحت الآمال القائمة فى النفوس كالأشباح ، حقائق واقعة فى محيط الحياة ..

فإذا قيل إن البطولة هى التضحية ، فحق كان المراغى

مفطوراً على أن يفتدى أمله بكل شىء .

لقد قهر المراغى كل عقبه ، وتغلب على كل صعب .

وصدق « إمرسون » إذ يقول أن البطولة كل البطولة فى أن تحرر نفسك من مغريات المجد الناقص ومفاتن النجاح المبتور » .

وما أرى هذا القول إلا منطبقاً على عمل المراغى ، الذى بلغ وذروة الكمال .

* * *

أم أن الصفة التى تضفيها على المراغى هى « العظمة » .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « الناس كإبل مائة لا تجد فيها الراحلة » .

ومثل أئمة الأزهر ومثل المراغى ، تطابق هذا الحديث . .

والعظمة ، هى أن ترى الرجل فتحس بأشعاعه منذ اللحظة الأولى ، ونشعر أنك أمام شخصية جارفة ضخمة .

وكذلك كان المراغى . .

ومقاييس العظمة ليست فى جلال المظهر أو رفاهة الملبس ، بل هى تبعث من الشخصية القوية . . بمعنوياتها وذهنها وشخصيتها . .

وقديماً كان الأنبياء يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . .

وكان جمال الدين يهز بريطانيا ، وليس عليه غير

ثوب واحد ، لا يدعه إلا إذا أصبح خلقاً بالياً . .

ولم يكن السهروردى ، صاحب الحكمة الإشرافية ، جميل الثياب ، ولكنه كان آية العبقرية . .

وكان غاندى يفعل المعجزات ، وهو عارى البدن ، لا تستره إلا خرقة من نسج يده . . وكان المراغى ، حسن السمت ، جميل المظهر ، وكان وسطاً ولم يكن غالياً . .

ومقياس العظمة فى شخصيته العظيمة لا فى ملابسه ومظهره . . ، فى أصغريه ، قلبه ولسانه ، حيويته الدافقة وجنانه الثابت وبراعته الفائقة ، وإيمانه بفكرته فحق أن يكون المراغى عظيما . .

* * *

أم أن الصفة التى تضفيها على المراغى هى « الزعامة » . .

وقد كان المراغى إمام مدرسة ضخمة ، لم يكن أتباعها إلا خلاصة المثقفين والشباب ، وهم قلما يتجمعون وراء زعيم .

كان « المراغى » زعيما ، على أوفى ما تكون شمائل الزعيم والقائد . . .

كان يشع روحاً وهاجة حية ، . . مؤتلفة ، وكانت شخصية يحفها الوقار والهيبة والجلال .

.. إذا جلست إليه كشف لك نفسك ، وأطلعك على ما تكنه فى أعماقك ، ولم يقتصر إشعاعه على الأفراد .. بل امتد حتى شمل الدنيا التى من حوله .. كنت إذا لقيته ملأك قوة وحياة .. ، هيئته ، نظراته ، نبرات صوته ، طريقة تعبيره ، إشاراته ، هزه رأسه ، حركة يده . فإذا هو يهزك هزاً عنيفاً .

فإذا انصرفت عنه ظلت كلماته ترن فى أذنك ، ويتجاوب فى أعماقك ..

كان الرجل عالماً نفسياً بعيد الغور ، يعرف كيف يصل إلى القلوب ويتملك النفوس ، وقد استطاع ذلك فى وقت قليل .

وتلك هى صفات الزعامة .

وكان متواضعاً ، هادئ النفس ، حلو الحديث ، رقيق الحاشية . كأنما قد امتص العلم .. امتصاصاً ، وفاضت نفسه به . دقيقاً ، مبسطاً .

لقد جرد نفسه من الجمود ، وحرر طبعه من قيود التقليد ، فسما وارتفع وحلق ... وأنشأ طيقه جديدة من العلماء .

وتلك هى صفات الزعامة ..

وعرف بقوة العارضة والجرأة فى قوله الحق ، لا يخشى

فيها أحداً ، ولا يطلعها إلا فى وقتها المعلوم المرسوم . . وقد أوتى إلى ذلك الحكمة واللياقة والمرونة .

وتلك هى صفات الزعامة .

وامتاز بذاكرة قوية[1] يذكر كل ما مر به خمسين سنة لا يخزم منه معنى ، وقد جمع إلى ذكائه الفطرى استقلال الفكر وحب الاطلاع ، فما سد أذنيه وعينه عن سماع الجديد ، والنظر فيه ، وهو على اليقين من أن مجد الإسلام لن يكتب له الظهور إن لم يؤيد بالعلم الجديد ، وقد استظهر القرآن ، وتدبره تدبيراً قل أن كان فى الفقهاء المتأخرين من داناه فيه ، وحفظ وهو فى القضاء بضعة دواوين لشعراء معروفين من أهل الجاهلية والإسلام » .

وتلك هى صفات الزعامة .

وكان يحلل لك المسألة المعقدة فيحيلها سهلة مبسطة يسيرة ، ويعرض لك الغامضة فى بساطة . . تدهش لها .

وكان يثق بأنه يستطيع أن يكسب الجميع إلى صفه ، ولم يكن مبغضاً لرأيه ، بل كان يحب حرية الفكر ، وكان صدره يتسع للرأى المخالف ، بالرغم من شدة ثقته برأيه .

وكان أبعد الناس عن الحدة أو التعريض .

---

(١) كرد على .

وكان يحترم خصمه ، ويعمل للوصول إلى صميم نفسه دون أن يجرح كبريائه أو يكشف له ما يشعره بالانتقاص . .

وتلك هى صفات الزعامة .

وكان أبعد ما يكون عن النفاق والملق . . يحب الجد ولكن فى يسر ، طبع على تعشق العمل والإنتاج والبحث . . فكان يصرف كل وقته فى العمل ، لا يكل ولا يمل .

ولطالما كان يجيئه من يكاشفه فى جرأة برأيه فكان يواجه ذلك بالصبر والحكمة والابتسام . .

وكان إلى هذا لا يكشف عن إنكار الوسائل فى سبيل الوصول إلى الغاية فهو يجرب ويغير ويجدد . . فى يقظة وحماسة وحركة . . لا يتوقف . وهو يتحين الفرص ، ويترقب الأوقات المناسبة ، ويدرس الملاحظات ، ويستمع إلى كل الآراء ، ويستفيد من كل شىء .

وهذه هى صفات الزعامة . .

* * *

. . الحق أن المراغى كان بطلا ، وكان عظيما ، وكان زعيماً .

* * *

كان فى أيام بعده عن الأزهر ، لا يقل تألقاً منه فى أيام عمله .

وكان مأمون الغضب إذا حزبه أمر .

وكان فى أشد حالات سروره ، كثير الصمت ، هادئ السمت .

وكان النصر لا يزدهيه ، والهزيمة لا ترده عن ثقته بنفسه وفكرته . .

وكان المنصب فى نظره تكليفاً لا تشريفاً ، لا يريده إلا تواضعاً ورقة حاشية ، وهو عنده وسيلة للخدمة لا سبيل للاستعلاء .

وكان عظيما بشخصه لا بمنصبه .

إذا تكلم قلت أفصح الناس ، وإذا حدث قلت أعلم الناس .

« ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » .

هضم الفقه والعلم ، وحوله فى كيانه إلى خلاصة عجيبة ، وأضاف ما فى بطون الكتب إلى تجارب الحياة فكون منهما مزيجاً عجيباً .

كان يؤمن بأن الدين لا ينفصل عن الدنيا .

* * *

وقد استطاع الرجل بقوة أعصابه ، وحيويته النفسية الدافقة ، أن يعيش فى حماية من مغريات عصره ، التى

تستغل لتثبيط همة كل مجاهد أو زعيم ، وأفلت من غوائل المرأة والمال والجاه .. التي سلطها الاستعمار على المجاهدين !

وأعانه على ذلك صوفيته الصادقة ، وزهده الطبيعى ، عاش حياة عريضة ، كتلك التى طلبها ابن سينا .. مجافياً لميادين الشهرة وأسباب الترف ، وحصن نفسه بالخوف من الله . .

وكان لا يحول الخصومات الفكرية إلى خصومات شخصية .

وكانت طيعته السمحة النافذة ، أداة طيعة من أدوات النصر التى مكنته من أن ينجح فى تحقيق ما عجز عنه ما عجز عنه غيره .

لقد عجز بعض من سبقه من المصلحين عن ضبط أعصابهم عن مواجهة الأحداث ، حتى وصلوا إلى مرتبة الحرج ، وقصروا عن تكوين رأى عام منصف ، أما المراغى فقد استطاع أن ينجح فيما أخفق فيه هؤلاء نتيجة لقوة شخصيته .

* * *

أما مفتاح شخصية المراغى فهى « الاعتزاز بالكرامة » .

إن حياته كلها صورة لهذه العزة الصادقة التى تضع النفس عنده فوق كل شىء . .

وانتظمت حياته أحداث ، كان فيها جميعها ، ذلك الرجل الذى يحرص على كرامته ويراها كرامة الدين والإسلام . ولا يفرط فيها .

حاول السكرتير القضائى لحكومة السودان ، تغيير لائحة المحاكم الشرعية فرفض المراغى قاضى القضاة ، وأصر على رأيه . . ولم يجد السكرتير بداً من أن ينزل عن رأيه إزاء إصرار المراغى .

وعندما مر الملك جورج الخامس بالسودان أعلن أن العلماء والعظماء سيستقبلونه وقوفاً حول الباخرة على أن لا يصعد إلا الحاكم العام . . .

فرفض المراغى أن يشترك فى حفل الاستقبال إلا إذا كان من حقه أن يصعد الباخرة فى عرض البحر كالحاكم العام سواء بسواء .

. . وقد اضطر القائمون على تنظيم الاستقبال خرق قواعد الدبلوماسية أمام إصرار المراغى ، فلما صعد إلى الباخرة سلم على الملك قائماً منتصباً فلما سئل لم ينحنِ للملك قال : ليس فى ديننا سجود لغير الله .

وعندما أعلنت الحركة الوطنية ، لم يلبث أن اشترك فيها ، دون أن يبالى بشىء .

وعندما طلب سلاطين باشا تعيينه قاضياً للقضاة رفض

أن يكون ذلك بأمر إنجليزى وأصر على أن يصدر أمر تعيينه بتوقيع خديوى مصر .

وعندما وقفت الحكومة إزاء مذكرته فى إصلاح الأزهر ، موقفاً غير إيجابى ، رفض أن يظل فى منصبه .

أما موقفه فى قصة الأرث الكبير فهى مثل رائع للاعتزاز بالكرامة والإيمان بالحق . . وهى وحدها تكفى للتدليل على شخصية الرجل العنيد فى الحق ، كان الإرث يقدر بملايين الجنيهات ، وقد أبدى متانة فى إحقاق الحق . . ولما لم يجد أصحابها وسيلة إلى قلب الرجل العادل ، يمكنهم من تحقيق رغباتهم الجشعة . . حاولوا إقصاءه عن نظر القضية . . فقذفوه وهو فى طريقه إلى محكمة القاهرة بماء الفضة فى عنقه كما النحو . الذى صورناه من قبل .

كان الإمام المراغى مثلا من أمثة الاعتزاز بالكرامة وقوة الخلق والعارضة .

وكان يمزج بين السجايا وبين السماحة والتبسط واللباقة ويجمع بينهما ، كل منهما له موضعه وله مقامه . .

وبهذا الخلق العظيم وبهذه الشمائل الغر استطاع المراغى أن يكون المراغى المجدد المصلح الذى حقق للأزهر والإسلام آمالا كباراً . . ووصل إلى مالم يصل إليه محمد عبده وجمال الدين .

الكاتب البليغ

لقدوجدت مجال القول ذاسعة فإن وجدت لساناً قائلا فقل

إذا كان الإمام المراغى هو الخطيب البارع الحجة الحسن الأداء فهو الكاتب المشرق الديباجة النقى المغنى والمبنى . . .

حقاً ، فالإمام المراغى إلى جميع شمائله ، هو الكاتب البليغ صاحب الأسلوب الهادئ العميق . . السهل الممتع ، الذى تحس معه صفاء النفس ، وجلال الفكرة ، وتوقد الذهن ، وبعد النظر ، ولباقة العرض ، وسلامة السياق ، وجميل العبرة ، وفيض التذكرة ، وقوة العارضة ، وصدق الحجة ، وبراعة المثال . . .

فإذا بك تمضى معه مسوقاً ، تحس كأنه يأخذ روحك ، ويمتلك عليك نفسك ، ولكنك تراك واثقاً ، من أن الكاتب لا يخدعك ، ولا يضلك ، وإنما يقدم لك أصدق القول . . . وأصحه وأسلمه . . .

وعلى هذا كله فإن الرجل لم يكن التأليف ديدنه ، أو غايته . . فهو ككل عظماء المصلحين لم يدع لنا مؤلفات

كثيرة . . وهو فى هذا يطابق قولا حبيباً إلى النفس : إنه يؤلف الرجال ولا يؤلف الكتب .

ولكنه على ذلك ، ما كان يكتب شيئاً ، حتى « تأشيراته » المصلحية العامة ، إلا على تلك الصورة البليغة القوية التركيب ، النافعة الأثر . .

. . وإذا ذهبنا نحصى مؤلفاته وجدناها قليلة ، ولكنها على هذه القلة فى الكم ، شامخة ضخمة فى الكيف . .

وتستطيع أن تقرأ رسالته عن « الزمالة العالمية » أو رسالته فى « جواز ترجمة القرآن » فتجدك أمام آفاق غاية فى السعة ، بعيدة فى الأثر . . .

. . وللإمام الكبير بحوث فقهية فى قانون الزواج والطلاق . . ما تزال مخطوطة لم تطبع بعد ، وهى موجودة فى مكتبة الإمام .

وله « رسالة الأولياء المحجورين » التى حصل بها على عضوية جماعة كبار العلماء وهى مخطوطة أيضاً .

وكان الإمام محمد عبده قد فسر جزء عم ، فجاء الإمام المراغى فسار فى هذا المضمار ففسر جزء تبارك . . . بالإضافة إلى الدروس الدينية التى ألقاها بين يدى جلالة الملك فاروق ثمان سنوات ، وكان أول من ابتدع هذه البدعة الحسنة

ونحن هنا لا نحب الإطالة فى الحديث عن بلاغة الإمام

المراغى ، ونخلى بين القارئ وبين هذه النماذج التى اخترناها . .

* * *

انعقد فى لندن فى ٣ يوليه ١٩٣٦ مؤتمر عالمى لإيجاد زمالة عالمية بين الأمم كافة وقد دعى الإمام المراغى لإلقاء خطبة فى هذا المؤتمر فأرسل كلمة ضافية ألقاها الأستاذ عبد العزيز المراغى وكان عضو البعثة الأزهرية هناك ومما جاء فى هذه الكلمة قول الإمام :

« لا أعتقد أن التقدم العلمى والفلسفى بقادر على التغلب على العوامل وإزالة أسبابها ، فقد شاهدنا أن الحروب تزيد هولا ووحشية كلما تقدم العلم . . « إن الأديان كلها قد اعتمد فى الإنسانية على أصل راسخ من غريزة التدين ، ودفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها قوة مدبرة حكيمة عادلة ، ترقب النيات ، وتحكم الضمائر ، وأن هذه الحياة صائرة إلى غاية من المسئولية والمجازاة ، فنى التدين هذا التأليه والخضوع ومراقبة الإله . . . ، وتوقع محاكمته ، عوامل ليست أقل خطراً ولا أضعف أثراً فى دفع الإنسان إلى الخير والبر » .

ويرى الإمام أن الزمالة بين رجال الدين يجب أن تسبق الزمالة العالمية وفى هذا القول فى صلب الرسالة « من الواجب أن يتعاون أهل الأديان على تقوية الشعور الدينى وإعادته

يغمر القلوب ويملأ النفوس هيبة ورهبة من الله ، ورحمة ورفقاً بعباد الله ، وعلى إعزاز مركز الأديان أمام العلم وأمام الفلسفة

« ولا شك فى أن تقوية هذا الشعور وإعزاز مركز الأديان يقى الحياة الإنسانية من خطر هؤلاء المستنيرين وقدوتهم حين تتحكم العادة وتقوى الرغبات غير الشريفة

ثم يعول على كسب المستنيرين فيقول « ثم إذا استطاع أهل الأديان كسب هؤلاء ، وإيجاد الشعور الدينى فى قلوبهم ، فإنهم يكونون قوة فعالة فى تنمية وسائط الإخاء البشرى

« إن إيجاد هيئة تقوم بتقوية الشعور الدينى ونجاحه فى الطبقات المستنيرة يقضى بتأييد مركز التدين أمام البحث العلمى والتفكير الحر تأييداً يقوم على احترام العقل وإعطائه حقه الكامل فى البحث النزيه التماساً للمعرفة ، يعتمد هذا الدليل على مقابلة الدليل بالدليل ، وعلى الارتفاع بطرق الإقناع الصحيحة مع البعد عن الوسائل الإرهابية والتضليل ، وعن الارتكان على السلطة الروحية المستبدة ، وبالجملة يبتعد عن الأخطاء الماضية التى دفعت الإنسانية ثمنها باهظاً مرهقاً »

وهكذا رسم الإمام المراغى لمؤتمر الأديان العلمى واجبه وأهدافه فى صراحة وفى قوة .

* * *

ويتجلى لك الإمام المراغى فى صورة العالم الذى جمع بين الدين والدنيا فى هذه القطوف :

« أيها المسلمون : لقد تحققت فيكم نبوءة خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « توشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها »

« تحققت هذه النبوءة ، وتداعت عليكم الأمم ، بل تداعت عليكم الثعالب تريد السيطرة على ما بقى من تراثكم ، وتريد الاستعلاء عليكم ، ومحو ما بقى من آثار العزة الإسلامية وشعائر الإسلام . . وركنتم إلى مودتهم مخالفين كتاب الله وضربوا ببعضكم رقاب بعض ، وأذلوا بعضكم ببعض ، وأنتم لاهون عن الخديعة والمكر ، ساهون عن روغان أولئك الثعالب وهم فرحون ضاحكون « لا تثقوا بعد أن جربتم ، ولا تأتمنوا بعد أن بلوتم ، فهبوا من نومكم . ، واعملوا والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم . . »

ثم يصل الرجل المصلح من تصوير هذه المتاعب إلى العلاج الحاسم وهو دائماً يراه فى تحطيم الفوارق المذهبية « أيها المسلمون . غضوا الطرف عن الفروق الطائفية والمذهبية ولا تجعلوا تلك الفروق سبباً فى الفرقة ، وسلاحاً بيد عدوكم ، يخرب به بيوتكم ، ولا تخشوا أحداً فى إظهار شعائر الإسلام ،

والانتصار له »

وهو فى مهمة رجل الدين يقول :

« على جملة الأديان أن يسعوا إلى رد الطمأنينة إلى الناس ، وإلى إيجاد السعادة النفسية عند الجماهير بردهم إلى الله وتوجيه قلوبهم إليه »

* * *

ويتحدث عن التقليد الأعمى فيقول :

« فتنت بعض شعوب الشرق بمظاهر الغرب ونظمه ، وأسرفت فى انتهاج كثير من أساليب الحياة فيه ، واستحارت الرث الخلق من ثيابه مع قليل من جديده ، ولفقت من زيها الأول ومن هذه الرقاع المستعارة لباساً مشوهاً ، لا هو شرقى ولا هو غربى ، وأصبحت حياتها الاجتماعية ملفقة ، لا هى دينية ولا هى غير دينية »

ثم لا يلبث أن يصف العلاج الحاسم :

« لا يصلح أمر هذه الأمة فى آخرها إلا بما صلح به أولها : رجوع إلى الله وهديه وتحكيم كتابه عند الاختلاف »

* * *

وهذه قطعة من قلمه البليغ يتجلى فيها النقاء والصفاء :

« أفلح من ثابر على نشر العلم وعلى إحياء الأخلاق

الفاضلة والشيم العالية وإغاث الملهوفين ، وفرج عن المكروبين ، وأعان الضعفاء ورفه عن البؤساء . . ووحد الجهود ، ووثق الإخاء ، وأزال الشحناء ، والبغضاء ، من نفوس العباد . . وعمل على وقاية المجتمع مما يهدده من الأخطار في دينه وعرضه »

* * *

فإذا تحدث عن حرية الفكر ، وهي دعوى . كثيراً ما تثار لغرض رأيت الحصافة واللباقة تتجلى في العبارات الدقيقة

« لحرية الفكر والرأى مناطق لا يجوز أن يتعداها محافظ على كيان الأمة وعلى أخلاقها . فإن الجمهور الجاهل والنشء المتعلم، يجب يحاط أن بسياج الدين وتقديسه ، وإلا تفلت من كل فضيلة ، وذهب وراء الشهوات ، وارتكب أنواع الجرائم والموبقات »

* * *

وهو يؤمن بالوحدة الإسلامية صادقاً حيث يقول :

« أرى واجباً على تنبيه المسلمين إلى وجوب السعى إلى الوحدة الإسلامية ، ليتم بينها التعاون والتناصر ، ولتكون أمة محترمة عزيزة الجانب صلبة القناة . . . وينبغى أن تكون الوحدة شاملة للثقافة والمذاهب والآراء لتزول تلك الفوارق ،

التى قطعت أواصر النسب وحبال المودة الإسلامية ، وكانت سبباً للضعف الذى استغل واتخذ أداة للتفريق والهدم » .

* * *

وهو يضع يده على الدواء فى عبارته :

« لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بالعقل والمعرفة واليقين ، فلم يذهب مجدها وعلمها وفقهها ، إلا بإهدار هذه الأسس وبعدها عن فهم الكتاب وتعاليمه الرشيدة ، وعن هدى صاحب الرسالة صلوات الله عليه

* * *

ويصور أمجاد الأمة الإسلامية ، ويقهر المحاولات المضللة لنسيان هذه الأمجاد فى عبارة قوية :

« لدى الأمم الإسلامية ماض يجرر أثواب الفخر والشرف فى كل ميادين الحياة ، فى ميدان العلم وفى ميدان الفنون ، وفى ميدان السلطان والعز ، وفى ميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضى والتخلص منه والزراية عليه ، والحط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الماضى والحاضر صلة .

وليس أدعى إلى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه

المحاولات التى فيها عقوق الأبناء للأباء ، ونكران الجميل ، وإنكار التاريخ ومنها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور»

* * *

فإذا جاء موعد الهجرة وجه النصح . . وهدى

« من الحق أن يحتفل بالهجرة ، ولكن من الحق علينا أن نعتبر بها ونتعظ ، وأن نقتدى بسيرة صاحبها ونستلهم منهـــا سر العظمة ، فهى تهدينا إلى تقدير الخلق وإلى ما فيه من جمال وسمو روحى ، تفوق لذاته كل مادية فى الدنيا ، وإلى أن الله سبحانه يمكن لمن آمن به وعمل صالحاً فى الأرض ويبدله من بعد خوفه أمناً ، مصداقاً لقوله « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً »

* * *

ثم يصل فى عبارات بليغة ، سمحة ، صافية ، إلى مقطع القول فى إصلاح دنيا الناس للناس :

« هذا العالم المملوء بالشرور والآثام والاعتداء والإجرام ، والذى تئن فيه الإنسانية من العلم والمدنية والذى خلت أفئدة أهله من الروح الإلهى ، ومن تعاليم الأديان ، ونظم المسيحية

والإسلام ، لا ينجيه إلا الرجوع إلى الله واحتقار المادة البعيدة عن النظم الإلهية والخلاص من الشهوات الجامحة ، والمطامع الفاسدة ، وتذكر الدار الآخرة ، والاعتقاد بالجزاء وبالجنات تجرى من تحتها الأنهار للأتقياء البررة .

فليس لهذه الحالة علاج إلا التدين ، وفى تعاليم القرآن شفاء للناس ، وفى نظمه من المرونة واليسر ما يستطيع أن يحل مشاكل العالم ويزيل مساويه » .

وبعد فهذه قطوف ، لم نتخيرها ، وإنما نقلناها كما صادفتنا فى أماكن متفرقة من كتابات الإمام الجليل .

وهى تعطى القارئ صورة واضحة لقلمه البليغ ، ونفسه التقية الصافية ، ومدى إيمانه بالإصلاح والتوجيه فى سبيل عالم أفضل .

وصدق كرد على حيث يقول عن الإمام إنه « كان يكتب بلون تكلف بألفاظ عذبة رفيعة لا سجع فيها ولا ازدواج ، وعباراته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين فى القرن الرابع والخامس وتغلب عليه ألفاظ القرآن وتحس أن كاتبها متشبع إلى الغاية بألفاظه ومعانيه » .

بقى أن نذكر فيما يتصل بهذا أن الإمام المراغى ترك يوميات فصل فيها الوقائع والأحداث التى صادفها فى عصره .

وما يتصل فيها من زعماء وأشخاص .

ويبدو أن هذه اليوميات لن ترى النور في وقت قريب ، لأن ظروفاً معينة تحول دون نشرها . . ونحن نرجو أن تزول هذه الأسباب فتتحقق إذاعتها لينتفع بها الناس .

ولا شك أن لهذه اليوميات قيمة تاريخية كبرى بعيدة الأثر في توجيه التاريخ المعاصر والحكم على شخصياته وزعمائه .

مكان المراغى

من الجماعة المجددة

ويتصل بهذا موقف المراغى من الجماعة المجددة وليس من شك أن « الإمام » المراغى ، كان « راعياً » و « موجهاً » للنهضة الفكرية الحديثة ، وكان بعيد الأثر فى الاتجاه الإسلامى الذى ذهب إليه الكتاب إذ ذاك ، ومضوا فيه .

كان المراغى سفير الأزهر الأول عند الطبقات المثقفة التى اتصلت بالبيئة الأدبية ، وأعلنت نقمتها على الفكر العربى ، وسخريتها من التراث الإسلامى حتى أعاد المراغى بجهوده الثقة بالإسلام والأزهر والتراث العربى جميعاً . . .

وهو الذى أخرج علماء الأزهر بعد طول اعتكاف إلى دنيا الناس ، وأتاح للعلماء والمفكرين أن يتصلوا بالأزهر ويقبلوا عليه .

وكان رضى الله عنه وثيق الصلة بصفوة رجال مصر وفى مقدمتهم أحمد لطفى السيد باشا ومحمد محمود باشا وجعفر والى باشا .

وقد جمع بين الفقه والعلم والاجتهاد من ناحية ، وبين الروح العصرية التى تقبل خير ما فى المدنية الحديثة من ناحية أخرى

وقد اتصل بالجماعة المجددة ، اتصالا وثيقاً ، فكان عوناً لهيكل باشا على تأريخ السيرة ، وهو الذى شجعه على إخراج كتابه على الأسلوب الحديث الذى انتهجه ، فى الوقت الذى كان علماء الأزهر يقفون من الكتابة العصرية عن الإسلام موقفاً معارضاً .

ومضى الإمام المراغى يشجع كتابه العصريين عن الإسلام، فقدم لكثير منهم مؤلفاتهم ، قدم للدكتور عبد العزيز إسماعيل ، كتابه عن علاقة الإسلام بالطب الحديث وقدم للدكتور فريد رفاعى كتابه عن الغزالى . . وقدم لغيرهم كثيرين . . .

* * *

وإذا كان الإمام المراغى ، هو أحد تلاميذ الإمام محمد عبده أو على حد قول تشارلس أدمس مؤلف الإسلام والتجديد « أكبر تلاميذ الإمام » فهو فى الحق أقرب تلاميذ الأستاذ محمد عبده إليه

وإذا ذهبت تقارنه برشيد رضا ومصطفى عبد الرازق ،

وضح لك هذا المعنى على أوسع نطاق ..

أما الشيخ رشيد فقد مال إلى الصحافة والتوجيه الكتابى .. ولم يكن خطيباً وكانت آراؤه فى نطاق متحفظ ، أقل جرأة من محمد عبده وأقرب إلى الجمود .

أما الشيخ عبد الرازق ، فقد كان أقرب إلى الفلاسفة والأدباء والمعلمين منه إلى المصلحين ، وقد سافر إلى أوربا ودرس علومها ، واتصل بالسياسة على وجه حزبى ، ومضى فيها طويلا .. وكان منزعه إلى الأدب أقرب .

أما المراغى فقد كان سوياً على الصراط ، مصلحاً أزهرياً بالفطرة ، لم تأخذه الصحافة ، ولم تمل به السياسة ، ولم يلتهب مذاهب الأدباء أو الفلاسفة ، وإنما آمن بالتشريع الإسلامى ، ورسالة الأزهر ، وفتح باب الاجتهاد ، غاية الإيمان وعمل لها جميعاً .

* * *

بقى الحديث عما كان بينه وبين الشيخ الظواهرى .

فقد ولى الظواهرى مشيخة الأزهر فى الفترة بين الفترتين اللتين عمل فيهما المراغى .. — أى من ١٩٣٠ حتى سنة ١٩٣٥ — ثم أعيد المراغى ، على أثر الضجة التى قام بها طلبة الأزهر غير مدفوعين ، إلا بإيمانهم بالرجل الأصلح

فى هذا الظرف . . هذه الضجة هى وحدها مقطع القول الحق فى أمرهما معاً . . .

* * *

وقد كان المراغى هو الرجل المنشود ، الذى أزال الأشواك وحطم الصخور والجنادل ، وفتح الباب للعمل الواسع البعيد المدى فى إصلاح الأزهر وفى تحرير العقيدة .

ولن يستطيع عامل فى هذا الميدان ، ولو جاء بعد مائة عام أن ينسى فضله وأثره .

عاش رضى الله عنه « خمسة وستين عاماً » كانت من من أحفل أعوام « حياة » رجل مجاهد ، مؤمن . .

قضى فى دراسته فى الأزهر أقصر أمد ، يمكن أن يحصل فيه طالب درجة عالم . .

وقضى فى السودان عشر سنوات ، كانت من أحفل السنوات بالجهاد والعمل والإنشاء . .

وقضى فى القضاء عشر سنوات أخرى كانت حافلة بالإصلاح والتجديد . . ثم وصل إلى أعظم منصب دينى فى الشرق ، فقضى فيه على فترتين أكثر من عشرة أعوام ، تحقق فيها الكثير من آمال الأزهر والإسلام قاد الثورة فى السودان ، على أثر الثورة المصرية . .

وأصلح الأسرة وأعاد إليها كيانها . .

وجدد الأزهر ، وفتح باب الاجتهاد ، وأعاد الثقة بالإسلام .

ودعا إلى ترجمة القرآن ونشره فى الخافقين . .

وعمل على وحدة المسلمين وإزالة أسباب الخلاف المذهبى بينهم

. وعمل فى محيط السياسة العليا النقية ، فوجه وأرشد . . . وسدد واحتمل فى سبيل رأيه ، وكرامته ، وكرامة منصبه ، كل شىء . .

وكان إلى ذلك كاتباً بليغاً ، وخطيباً قوياً ومحدثاً لبقاً . .

ومع هذا الجهاد الطويل كان رضى الله عنه يرى أنه لم يحقق بعض ما كان يريد بل ويتهم نفسه بأنه لم يعمل شيئاً ويقول « إننى أضعت عمرى عبثاً فى الاشتغال بالقشور . . »

وكان يتمنى أن يحرر الفقه الإسلامى وينقيه مما علق به . . ويقول « إن ذلك كان أنفع عند الله وأجدى »

* * *

وبعد فالإمام المراغى رضى الله عنه ، صورة مجددة من صفوة أقطاب الفكرة الإسلامية الذين أرسلهم الله لتجديد

رسالته ونشر دينه .

وقد قام بواجبه ، على وجه ، هو غاية فى القوة والعظمة والجلال ، وسجل له التاريخ تلك الآثار العديدة ، البعيدة المدى ، فى تاريخ الأزهر والإسلام والشرق . .

ونحن إذ نقدم هذه الرسالة الصغيرة ، إنما نستشعر صادقين ، عظمة الرجل الجديرة بأن تكتب عنها الأسفار والمجلدات ، ونرجو أن نوفق إلى القيام بمثل هذا العمل بالاشتراك مع صفوة من أصدقاء الإمام وحوارييه . . .

رضى الله عنه ، ورحمه رحمة واسعة ، وأسكنه مقام الصديقين والأبرار والشهداء وحسن أولئك رفيقاً .

إلى عالم الخلود

ثم غرب النجم .. بعد أن سطع فى تاريخ الشرق والإسلام والعروبة والأزهر زمناً .. اختطفه الموت ، فى الوقت الذى كانت الدنيا تنتظر على يديه الكثير « والموت — كما يقول المازنى — حق ، ولكن وقعه يختلف ، فإن الجنود غير القادة ، والهباء من الناس غير ذوى الوزن والرجحان .

« واللواء المرفوع إذا خر صاحبه لم يحسن حمله بعده إلا صنوه أو قريعه ولم يقو على إقامته مرفوعاً خفاقاً .. إلا الند والقرين ، والزمن بهؤلاء الممتازين ضنين ، فكأنما الواحد منهم « يمتص ما فى تربة جيله ، من عناصر القوة والصلاح ، فيحتاج الأمر إلى زمن كاف لسد النقص وتكوين هذه العناصر من جديد ، بالمقادير الكافية لإخراج فرد آخر ممتاز »

* * *

كان المرض يعاود الأستاذ فى السنوات الأخيرة ، بين حين وحين ، وكان الفقيد قد ألقى الحديث الدينى الأول من أحاديث شهر رمضان كعادته كل سنة .. أملم

حضرة صاحب الجلالة الملك . .

. . وأحس بالحاجة إلى الاستجمام والاستشفاء ، فقصد مستشفى فؤاد الأول للمؤاساة ، . . . وظل فى حجرته بالمستشفى يقرأ ويسجل ملاحظاته . . كان يعد حديثاً فى تفسير « آية القدر » .

كان يريد أن يقول شيئاً جديداً ، فى هذه الآية ، يهز به الدنيا .

لطالما حدث العلماء الذين زاروه واتصلوا به ، بأنه سيحدث بتفسير هذه الآية انقلاباً . . . فكرياً وعلمياً .

وقال بعض من استمعوا إليه ، إنه رأى أن ليلة القدر هى أول ليلة بدأت فيها الإمبراطورية الإسلامية ، فهى المهرجان الأول لها . . .

* * *

وكأنما كان يحس الشيخ بوقع الموت ودبيبه . .

فقد كان فى هذه الفترة الأخيرة من حياته ، يستشعر شيئاً جديداً كان قد ضاق بالدنيا ، وقد أسر بعض هذا المعنى إلى ابنه « المرتضى » . .

وهمس بمثل هذا القول إلى ابنه « رشاد »

. . إنه كان يرى أن أحداً لا يفهمه ، وأنه يجب أن

يلتق الله ، وكان يؤمن بأنه أهل لهذا اللقاء . . .

وكان على ثقة — يرددها دائماً — إن الله جل جلاله يعلم منه إخلاصه وصدقه .

وكان يفهم من هذه العبارات التي أسرها إلى بعض المقربين إليه . . ، أن أملا كان يراود نفس الإمام . . وأن الظروف لم تتح له تحقيقه ، على الرغم مما قصد إلى ذلك ، فتمنى لقاء ربه .

وتركته « ممرضته » وبين يديه كتب تفسير القرآن يراجعها . ثم عادت فوجدته مسجى بين سطور من الذكر الحكيم ، وقصاصات من التفسير هي آخر ما كتب الفقيد . . . وكان ذلك في ساعة متأخرة من مساء الأربعاء ١٣ رمضان ١٣٦٤ — ٢١ أغسطس ١٩٤٥ .

* * *

حدثني الأستاذ رشاد المراغي قال : لقد دخل عليه طبيبه قبلها بيومين فبادره الشيخ في حزم : رضيت أو لم ترض . . سأكون في القاهرة يوم الخميس . .

وصدق . . فقد قصد إلى القاهرة يوم الخميس محمولا على الأعواد ، حيث شيع إلى مقره الأخير .

* * *

وكان آخر حديث ديني ألقاه ، بين يدي جلالة الملك

يوم الجمعة ٨ رمضان ١٣٦٤ فى مسجد (على تمراز) كما هى عادته كل عام . .

وكان صوته متهدجاً . . فى هذه المرة ، وكانت أنفاسه متلاحقه . . ، وأحس الذين سمعوه أن الإمام المراغى كان يودع الدنيا ، ويحس دبيب الموت .

وكان حديثه الذى نشره فى الأهرام فى الأسبوع الأخير هو وصيته الأخيرة للمسلمين : « وأسروا قولكم أو اجهروا به . . إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

« فالله يعلم المصلح من المفسد ويعلم الصائم من المفطر . . ويعلم المخلص فى صومه ، والمرائى . . ويعلم من أدى حق الصيام ، ومن أخل بحقه ، لأنه خلق عباده وعلم ما فى ضمائرهم وسرائرهم

« وللصوم حقوق يجب أن تؤدى حتى يقبله الله فما هو جوع ولا عطش وامتناع عن الشهوات فحسب . . وإنما هو رياضة نفسية يترك فيها الأكل والشرب واللذات الأخرى عن طيب نفس ، ورضاً وسرور وبهجة ، لأن الله أمر ، ولأن الله طلب ، ويقصد المرانة على ترك ما تحبه النفس ، إذا كان فى تركه رضا الله

«وللفقراء فيه حقوق على الأغنياء ، ليست حقوق الزكاة

المفروضة فحسب ، بل ما يمنح الفقير رضاً من جاره الغنى ليزيل من قلبه الغل والحقد والحسد وتمنى زوال النعمة .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أسخى الناس نفساً وكان فى رمضان كالريح المرسلة رجائى أن يتقبل المسلمون تهنئتى بشهر الصوم المبارك ، وأرجو أن يكون منهم فيه التفكير فى حاضرهم ومستقبلهم والتفكير فى تحطيم الأغلال التى أرهقتهم ومحو المذاهب والتشيع التى فرقتهم وصيرتهم أمماً بعد أن كانوا أمة واحدة وصيرتهم أعداء بعد أن كانوا إخواناً وصيرتهم أشداء بعضهم على بعض بعد أن كانوا رحماء وصيرتهم مستضعفين عند غيرهم بعد أن كانوا أقوياء . والدين رابطة إخلاص لله وحسن معاملة مع الخلق ، ولا يضرنا مع العزة الإسلامية أن يخلد الله العصاة فى النار أو يطلقهم ولا أن تكون صفات الله من ذاته أو غير ذاته ، ولا أن يكون الماء الذى لا ينجس عشراً فى عشر أو قلتين ، ولا أن يكون أبو بكر فى البروتوكول سابقاً على على أو يجئ على قبله .

. أيها المسلمون تنبهوا فالزمن جاد وأنتم تهزلون ، اقضوا على هذه المذاهب جميعها وخذوا مذهباً واحداً عن الله سبحانه وتعالى ، هو المذهب المنصوص عنه فى القرآن فإن فعلتم ذلك عززتم والا بقيتم فى الهوان . وعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون .

وما سرى النبأ فى الشرق ، حتى هز الدنيا . . وأفزع من كانوا يعقدون الأمل على الإمام الكبير .

وتأثرت بيروت ودمشق وبغداد والقدس ، وأقيمت صلاة الغائب عليه فى جميع مساجدها الكبرى .

وعمرت أنهار صحفها الكبرى بأنباء الإمام والحديث عن شمائله وتاريخه وصفحات جهاده وأمجاده . .

وفى مصر تأجلت حفلات وفاء النيل

وصلى جلالة الملك فاروق الجمعة فى مسجد سيدى بشر . .

وبعد أن تمت الصلاة تفضل فقال لجماهير المصلين :

« أطلب منكم أن تقرأوا الفاتحة على روح صديقى الشيخ المراغى »

أما السودان فقد تأثر بالحادث ، على صورة مروعة . . ، فقد شمل الحزن جميع المناطق التى عرفت الرجل ، والتى لمس أهلها خلقه النبيل وشخصيته الكبيرة وأقيمت صلاة الغائب فى مساجد السودان .

وأرسلت التعازى ، من حلب ، وأوقف اتحاد العلماء هناك جلساته . . وأرسلت إيران والحجاز واليمن وسوريا ولبنان تعازيها ووفودها . . .

وأحس الجميع بأن الرجل العظيم قد مضى . .

رحمه الله رحمة واسعة . . .

فهرس